روايات عبير





آن ميثر

سقوط الأقنعة

١١١

روايات عبير

HARLEQUIN – "ABIR" – No. 111

سقوط الأقنعة

قد تنقلب الحياة رأساً على عقب في غمضة عين، او تكشف اسرارها في لحظة عابرة... هذا ما حدث لسمانثا الجميلة اليافعة وكان عليها ان تتخلى عن احلامها على شواطىء بيروزيو القرية الايطالية الحالمة حيث ترعرعت...

... وفجأة وجدت نفسها في لندن حيث كانت حياة الأضواء تنتظرها بكل قسوتها وتكاد تطيح بها كالاعصار... الأقنعة تحيط بها من كل جانب، والحب يبدو مستحيلاً.

هل تستسلم للاغراء في هذا العالم الشائك وتبقى، ام انها تنفلت منه في آخر لحظة لتلبي دعوة الى المجهول؟

المراسلات:
Harlequin (Cyprus) Ltd.
29 Michalakopoulou St.
Athens T.T. 612, Greece

Printed in Great Britain by
Richard Clay (The Chaucer Press) Ltd, Bungay, Suffolk

١ـ نداء الى سمانثا

تلقت سمانثا رسالة من انكلترا بعد شهر واحد من وفاة والدها المباغتة. وكانت لا تزال في حالة صدمة وذهول منذ سماعها نبأ حادث السيارة الذي أودى بحياة والدها على طريق الاوتوستراد السريعة من ميلانو الى بولونيا وقد نجم الحادث عن انفجار مفاجىء في احدى العجلتين الاماميتين لسيارته القديمة الفخمة، الامر الذي جعلها تنزلق بشكل خطر وتتجاوز الحاجز الفاصل بين قسمي الاوتوستراد قبل ان تصطدم بحافلة ركاب سياحية انطلقت بالاتجاه المعاكس. وذعر المسافرون، الا انهم لم يصابوا بأذى، في حين قتل جون كنغزلي.

وتملك الشقاء سمانثا. فقد شاركت والدها حياته طويلاً، في هذه القرية الايطالية الصغيرة بيروزيو التي يعتمد سكانها في معيشتهم على صيد السمك. كما كانت علاقتهما حميمة، وحميمة جداً بحيث جعلتها وفاته تحس انها لن تذوق طعم الامان والسعادة ثانية. وهكذا، لم تتمكن ماتيلد العجوز التي عملت مدبرة للمنزل منذ وعت سمانثا الدنيا، على سد الفراغ الكبير في حياتها.

كان جون، كما نادته دائماً، في زيارة لميلانو بقصد افتتاح معرض منحوتاته الاول بعد اغفال موهبته سنوات عدة. وعندما زارهما احد المتحمسين للفن، اعجب بمنجزات جون، وساعده على اقامة معرضه في ميلانو حيث كان قد امضى اسبوعين وهو يوافي سمانثا باخبار نجاحه والعروض التي انهالت عليه. ووقع له الحادث في طريق عودته الى البيت. وطالما تأملت سمانثا بمرارة سخرية القدر، الذي اودى بحياة جون ما ان

بدات احلامه تتحقق واتعابه تثمر.

واجريت مراسم الدفن في بيروزيو، فيما تجمّع كل سكان القرية في الكنيسة الصغيرة حيث أدّى الكاهن صلاة الجناز. وضاقت سماننا ذرعاً بعودة اهل القرية وتعاطفهم، وتمنت لو انها بقيت وحيدة مع حزنها وذكرياتها.

كانت اوضاع والدها المالية في حال مزرية. فالفيلا مستأجرة. وقد حسب الجميع ان المعرض بداية نجاحه، مع انه لم تظهر اية دلائل بعد على ايفائه تعبه عبر السنوات الطوال. اما مرتبه المفروض له بعد تقاعده من الخدمة العسكرية، فقد مات معه. ولم يبق لسماننا بعد دفع تكاليف الدفن الا القليل. ورضيت حالياً بالبقاء في الفيلا مع علمها انها مسكن مؤقت. وتوجب عليها ان تتحرك بسرعة: فاما ان تحصل على وظيفة، واما ان تقبل عرض الزواج المقدم لها. لكنها كانت دائماً تتجنب التفكير بالمصير وفي اي حال، كم وظيفة هي مؤهلة لادائها؟ صحيح انها تحسن استعمال الآلة الكاتبة الى حد، وان بمقدورها ادارة منزل صغير وطهي بعض انواع الطعام، لكنها لم تعتبر هذه الكفاءات مقنعة في عالم حديث يخيل لها ان كل فتاة فيه تزوّد نفسها بمعارف واسعة حتى تؤهل نفسها لتتبوأ مركزاً ما.

والآن، وصلها هذا الخطاب من انكلترا، البلد الذي لا تقر فعلاً بانه مسقط راسها. فهي عاشت في ايطاليا منذ كانت في الرابعة من عمرها، وتتكلم الايطالية بطلاقة أهل البلد. وهذا هو الوطن الوحيد الذي عرفته حقاً، علماً بان والدها اصرّ ان يتحدثا بالانكليزية كلما انفردا ببعضهما.

وكان جون قد اخبرها ان امها توفيت فيما كانت هي طفلة صغيرة، وان ليس لها أي اقارب آخرين. وعليه، هجر انكلترا، وقصد ايطاليا حيث يتوافر له الوقت والالهام لاداء عمله.

لم يكن بحوزتها مال كثير. الا ان اليسير منه كفاها بسبب رخص المعيشة في هذه القرية التي تعتمد على صيد السمك، المتوفر في الاسواق.

وماتيلد تصنع كل ما يحتاجه البيت من الخبز. اما هما، فينتجان الخضار في الحديقة الصغيرة الواقعة اعلى التلة وهكذا، كانت سماننا قانعة على الدوام.

قلبت سماننا الرسالة الموضوعة في غلاف ثمين بين اصابعها قبل ان تفتحها. ولم تعرف اي شيء آخر عن الخطاب الذي حيرها كثيرا معرفة مضمونه. انه لا بد مرسل من احد اصدقاء والدها في انكلترا، لم يعرف بوفاته الا مؤخراً.

كُتب الجواب على ورق مخصص للرسائل يحمل عنواناً خط باحرف ذهبية صغيرة: مسكن دافن، ولتشاير. وعبست سماننا فيما تطلعت الى نهاية الرسالة لتقرا امضاء مختصراً بسيطاً: لوسيا دافنبورت. وهزت سماننا كتفيها بطريقة مالوفة فيما قرات الخطاب من بدايته:

«عزيزتي سماننا:

حين بلغني نبأ وفاة صهري المفجعة، وضعت الترتيبات اللازمة لعودتك الى انكلترا. فمن الواجب ان تعودي الينا نحن، نحن اسرتك، ونحن الذين نريدك. فانا جدتك، وانوي اطلاعك على الحقيقة التي ترفض بربارا كاي أم أخرى، اعلامك بها.

تأكدي ان أمك ما زالت تنبض بالحياة والحيوية وذلك على عكس ما يمكن ان يكون قد صوره لك والدك. واني اتصور انك تجهلين هذه الحقيقة. الا اني ساوافيك بمزيد من التفاصيل عندما نلتقي. ويسرني كثيراً، يا عزيزتي، ان تعودي للاقامة معي، انا السيدة العجوز، في مسكن دافن. فوضعي الحالي ممل وكئيب. لكني أمل ان تحيط بي صبية مثلك، عن ان اسعى لتوفير المتعة والسلوى لك بالرغم من ذلك.

تأملت سماننا الرسالة بدهشة. وانتاب الوهن رجليها، فارتمت فوق ذراع احد المقاعد القريبة متراخية وقد تنازعها الاندهاش والشك. هل يمكن ان يكون ما قراته صحيحاً؟ ام هل طلع احدهم بهذه الفكرة البغيضة قصد المزاح؟ ثم قلبت الصفحة باصابع مرتجفة، ومضت تقرأ:

وحين اتصل بي محاميا والدك، بناء على تعليماته في حال اصابته بمكروه، سارعت بارسال تعليماتي لترتيب سفرك الى لندن، حيث ساكون هناك شخصياً لملاقاتك اذا تفضلت واعلمتني بتاريخ وموعد وصولك. ارجو الا تكثري التفكير في ما قلته لك الى ان نلتقي. فمن المستحيل ان تفهمي شيئا اذا لم توضح لك الامور وتشرح الحقائق. وثقي باننا سنرحب بك هنا

المخلصة لك: ولوسيا دافنبورت».

لم تتمكن سماننا من كبت صيحة التعجب التي انبعثت من حلقها.

ووضعت الرسالة في مظروفها بعناية، فيما حدقت في الفراغ على غير هدى. فسألت نفسها ثانية اذا كان هذا صحيحاً. هل صحيح انها عاشت كذبة طوال هذه السنوات؟ وهل ما زالت امها حقاً على قيد الحياة؟ واذا كان هذا صحيحاً، فلماذا لم تتصل بها ابداً؟ وحتى اذا لم يكن ذلك صحيحاً، من يفكر بهذا الضرب من الخداع؟ لكنها قررت في نهاية المطاف انها الحقيقة ولا بد.

ومدت يدها الى علبة السكائر المنقوشة التي صنعها والدها، فاخرجت منها لفافة تبغ، واشعلتها. ثم اخذت تفكر بحالة الاضطراب التي سيطرت على عقلها. لقد امتلأت حياتها الفارغة من جديد على نحو مفاجىء. امتلأت بغرباء يدعون القربى. جدة، وام، هل يمكن ان يكون لها اخوة واخوات أيضاً؟ وتزاحم مئة سؤال وسؤال في رأسها، لكنها لم تستطع ان تجد لها جواباً مقنعاً. والطريقة الوحيدة لحل اللغز هي زيارتها لندن حسبما اقترحت جدتها.

لقد ارهبتها فكرة ابعادها، وحتى اقتلاعها، عن كل ما ومن احبته طوال هذه السنين. فهل يمكنها ان تترك ماتيلد؟ صحيح ان لماتيلد شقيقة تعيش في رافنا على مقربة من بيروزيو، ولكن، هل يجوز ان تتوقع مغادرتها بهذه الطريقة؟ ولماذا لم تحب اقاربها الجدد الغرباء، وهم لم يهتموا بها حتى الآن؟ ولماذا ابقى جون الامر سراً خفياً؟ تصورت انهما لا يخفيان اسراراً عن بعضهما، فيما كتم والدها سراً قد يغير مجرى حياتها كليا!

اصابتها الرجفة بالرغم من حرارة الجو. فوقفت، ثم سارت على الأرضية اللامعة المصقولة نحو الباب الذي ينفتح على الشرفة المطلة على رمال الشاطىء البيضاء. . . حيث تتكسر امواج البحر الادرياتيكي الرقيقة المزبدة على الدوام. كان المنظر اخاذاً، فحبست امامه انفاسها. لن تترك كل هذا الجمال، وتقصد مدينة انكليزية باردة تتلبد الغيوم في سمائها، وتحتجب فيها الشمس عن الظهور، فلا يستطيع الناس ان يخرجوا دون ارتداء معاطفهم الواقية من المطر! لقد رسم جون صورة قاتمة لموطن ولادتها. ولكن، بعد كتمان جون كل هذه الاسرار عنها، تساءلت اذا كانت لندن على هذا القدر من البشاعة الذي صوره لها. فلو كان في تلك المدينة شيء يكرهه، شيء جعله يهاجر الى ايطاليا ليبتعد عنها، افلا يمكن

انه رأى الامور بمنظار يختلف عن منظارها؟ وشعرت ان ليس باستطاعتها اطلاع احد على معلوماتها في هذه اللحظات. فقد كان الخبر صاعقاً، ومن الصعب شرحه حتى لماتيلد.

واطفأت سيكارتها. ثم عادت ادراجها لتعبر الممر المغطى بالآجر والمؤدي الى حجرة نومها حيث خلعت عنها بنطالها الجينز القديم وسترتها الصوفية. وارتدت بزة استحمام خاطتها بنفسها، ثم نظمت شعرها على شكل ذيل الفرس.

وغادرت الفيلا باتجاه الشاطىء، متجاوزة الشرفة ثم التلة المنحدرة. وعدت نحو البحر الدافىء، حيث القت بنفسها. . . فغمرتها مياهه قليلاً قبل ان تطفو على السطح وتسبح بثبات فوق الامواج. كانت تسبح كل يوم. وكان بوسعها ان تتناسى مضاعفات الرسالة الخطيرة بعض الوقت وهي في الماء. ولكن، لا بد ان تعود سريعاً وتخبر ماتيلد بالأمر، وتطلب مشورتها. أما الآن، فلا يخطر لها على بال سوى دفء الشمس والسعادة التي توفرها لها المياه. ولم تنتبه الى انها ابعدت عنها، وللمرة الأولى، شبح الكآبة التي سيطرت عليها منذ وفاة والدها.

ولما تطلعت الى الشاطىء خلفها، ادركت انها وهي السبّاحة القوية قطعت مسافة اكبر بكثير مما ظنت. واستدارت، فرأت صياداً ممتلىء الجسم يراقبها. فلوحت له بيدها اذ عرفته. وسرعان ما بلغت الاماكن الضحلة فخاضت في مياهها الى ان بلغت الشاطىء.

وقف بنيتو انجيلي يراقب تقدم سمانثا بعينين دافئتين يملأهما الشوق. لله ما اجمل هذه الفتاة الانكليزية الشقراء بشعرها الحريري الكثيف المنسدل رطباً فوق كتفيها. وتفرّست سمانثا بكتفيه مبتسمة. وتوازت عيونهما بسبب طول قامتها. وسألها بنيتو باللغة الايطالية:

«انك افضل، اليس كذلك؟»

خفضت سمانثا رأسها. ومع انه لا يحتمل ان يترك بنيتو قريته، فقد عكفت سمانثا على تعليمه الانكليزية، التي خاطبته بها الآن:

«اجل. اشكرك يا بنيتو»

فكشر مرتبكاً، وتابع حديثه بلغته:

«سنذهب اتعابك سدى. فانا لن اتعلم»

أرخت عقدة شعرها، وارتمت فوق الرمال متمددة باسترخاء فيما أجابته بالايطالية:

«انك لن تتعلم اذا لم تحاول. ما اروع المياه!».

وجثم بنيتو بجانبها، وعلّق بقوله:

«انك تسبحين بعيداً لوحدك».

فتنهدت وقد بدا انها عوقبت على نحو ملائم:

«اعلم ذلك».

احتار بنيتو لأن سمانثا لم تضع وقتها في الأحاديث الفارغة منذ وفاة والدها. اما اليوم، فقد اختلف الوضع. وهنا خاطبته وكأنها قرأت افكاره:

«الحقيقة انني مذهولة بعض الشيء، فقد تلقيت هذا الصباح رسالة من انكلترا».

تجهمت قسمات بنيتو وقال:

«انكلترا! هل تعرفين احداً في انكلترا؟».

اجابت سمانثا وهي تنقلب على وجهها:

«يبدو انني اعرف».

«أحداً يعرف والدك؟».

«اجل. . . وكلمة «يعرف» ليست معبّرة بشكل كافٍ».

وهزّت رأسها. اما هو، فتمدد بقربها:

«اذن خبريني من هو مرسل الخطاب».

فابتعدت عنه بغضب. ثم جلست:

«اني لا امزح. فالرسالة من جدتي. هل فهمت الآن؟».

تخلى بنيتو عن تكاسله ودعابته:

«جدتك! لكن والدك قال ان لا اقارب لك».

«اعلم ذلك. لكن، يبدو ان لي اقارب. هذا اذا لم يكن احدهم يهزأ مني ويسخر بمشاعري، والأهم من ذلك انّ لي أمّاً».

فصاح بنيتو:

«يا الله!».

«هذا هو شعوري بالضبط. فانت ترى انني اواجه مشكلة».

«وما هي؟».

«جدتي تريدني ان اذهب الى انكلترا».

ارتسم الغضب على ملامح بنيتو:

«كلا. انك لن تذهبي».

تنهدت سمانثا:

«هذا ما لم اقرره بعد».

مال بنيتو نحوها:

«هراء! وماذا عنا؟ انك تعرفين حقيقة مشاعري تجاهك. وقد ظننت. . . املت. . . انه سرعان ما. . .».

اطرقت سمانثا قبل أن ترد:

«اني اعلم».

لم يعد يساورها الشك بصحة مشاعر بنيتو نحوها. لقد كبرا معاً دون ان يفترقا معظم الوقت. فعلّمها السباحة والصيد وادارة المركب تماماً مثل اي شاب في القرية. ولم يعترض جون، علماً بانه لم يكن شديد الاهتمام ببنيتو احياناً. ولم يستطع ان يرى ماذا كان يحدث بالقرب منه. ودخل في روع سمانثا ان صداقتهما متينة وحميمة بحيث لا تسمح بنشوء قصة حبّ وغرام. لكن اقتران ابناء الجيران وبناتهم ببعضهم امر طبيعي في ايطاليا. وعليه، لم يخف بنيتو امر مشاعره.

وانتظر اهل بنيتو يوم العرس. وتناقل اهل القرية اخبار كوخ شغر حديثاً يلائم العروسين، خصوصاً وان ايجار الفيلا التي يقطنها جون كنخزلي مرتفع بالنسبة لها. كما رغب بنيتو بالبقاء وسط اهله الذين اعجبت صحبتهم سمانثا، وفتنت باولاد اشقائه وشقيقاته. لكن الزواج كان خطوة كبيرة. ولن ينقضي وقت طويل قبل ان ترى نفسها وسط اسرتها وقد اضاعت كل فرصة بمغادرة القرية ثانية. هل هذا ما تريده فعلاً؟ لقد طرحت هذا السؤال على نفسها مراراً وتكراراً، وطلعت دائماً بجواب واحد غير مقنع.

ما اختيارها الأخر بعد ان توفي جون وزادت المشكلة تعقيداً؟ لقد فتحت هذه الرسالة امامها ابواباً جديدة. ومع ان فكرة الرحيل ارهبتها، فانها ايقنت ان هذه فرصتها الأخيرة للتعرف على العالم. ولكن كيف يمكنها ان تشرح هذا الأمر لبنيتو؟ وهل يسعه ان يفهمها؟ كان بنيتو عازماً على

الاقامة في بيروزيو. انه يحيا حياة هانئة ويفخر باسرته. وربما افتخرت، هي ايضاً، باسرتها.

دأب بنيتو على اعتبار زواجها امراً طبيعياً. ولذلك اضطرب عندما جوبه بموقفها الجديد. وسألها فجأة:

«لماذا لم يحضروا لرؤيتك مرة؟ ولماذا اعلمك والدك بان امك ميتة؟».

فصارحته متنهدة:

«الحقيقة اني لا اعرف. لعله اعتبرهم غير موجودين بالنسبة له. الا ان محاميّ والدي اتصلا بجدتي. ولا بد انه قرر ان اعرف الحقيقة اذا اصيب بمكروه. ومن البديهي انه لم يتوقع حدوث مثل هذا الامر بسرعة. فهو لم يكن، في اي حال، متقدما في السن عند وفاته».

«ولكن، ماذا عني؟ لا شك ان والدك عرف بعلاقتنا؟».

فاطلقت سمانثا تنهيدة طويلة:

«كان يعرف ولا يعرف. فانا يا بنيتو لا اتصور ان ابي توقّع ان تتعدّى علاقتنا اطار الصداقة».

ابتعد بنيتو عنها:

«وهل سمحت له بان يتصور ذلك؟».

فاجابته سمانثا وهي تقف بدورها:

«كلا بالطبع. لقد اخبرته اننا معجبان ببعضنا...».

بسط بنيتو يديه يائساً عاجزاً:

«معجبان؟ اني احبك».

اطبقت سمانثا شفتيها قبل ان تعترف:

«اعلم. اني أعلم».

فزمجر ساخطاً:

«لكنك ستسمحين لاسرتك الجديدة بان تبعدك عني».

واصمتْ سمانثا اذنيها بيديها:

«لا!! لست ادري بعد».

وطغت الشراسة على بنيتو:

«لن اسمح لك بان تفعلي ذلك».

ادارت سمانثا له ظهرها، وركضت تتسلّق التلة باتجاه الفيلا. فركض

هزّ جايك برأسه ثم سأله:

«وعائلتك يا لاتيمر؟ هل الجميع بخير؟ كيف حال ابنك هذه الأيام، أعني الابن الموجود في الجامعة؟ هل تعتقد بأنه سيتخصص في الفيزياء والكيمياء؟».

ابتسم لاتيمر وأجاب بحماس وفخر:

«انه يرغب في ذلك يا سيدي. واعتقد ان نتائجه حتى الآن مرضية. انه في السنة الثالثة، كما تعلم. وأنا متأكد من انه يقدر لك اهتمامك يا سيدي».

وصل جايك الى منزله الواقع في ميدان كيرسلاند الذي يضم أبنية فخمة يملكها رجال أعمال أو حرفيون ومهنيون. وكان لاتيمر يعيش مع زوجته، التي تعمل كمديرة منزل في بيت جايك، وبقية أفراد عائلته في شقة حديثة ملحقة بالفيلا ولكنها خاصة بهم وتثير اعجاب وربما غيرة الأصدقاء والاقرباء. أوقف جايك سيارته أمام البيت فما كان من سائقه الا ان نزل قبله وفتح له الباب قائلا:

«هل ستحتاجني بعدُ، خلال هذه الليلة يا سيدي؟».

رفع جايك طوق سترته ليردّ عن عنقه هواء الليل البارد وقال:

«لا اعتقد، شكراً. بامكانك الآن ان تضع السيارة في مكانها».

«حاضر يا سيدي».

صعد جايك الدرجات الست وفتح الباب بمفتاحه الذي لا يفارقه وتوجه نحو القاعة عبر مدخل جميل رائع. وهناك لاحظ أن الأبواب التي تؤدي الى غرفتي الطعام والاستقبال والغرفة التي يستخدمها كمكتب خاص كانت جميعها مغلقة على غير عادتها. أين هي هيلين؟ كانت دائماً تحضر لملاقاته واستقباله عندما يعود! ألم تسمع صوت السيارة، أو فتح الباب واغلاقه؟

رمى سترته بدون اكتراث على أحد المقاعد وهمّ بالخروج. وفي تلك الأونة فتح الباب الذي يؤدي الى المطبخ والطابق السفلي حيث يسكن السائق وعائلته، ودخلت منه مديرة المنزل السيدة لاتيمر. حيّته بتهذيب قائلة وهي تأخذ سترته لتعليقها في غرفته:

«مساء الخير يا سيدي، وأهلا بك. هل كانت رحلتك موفقة؟».

«لعل ذلك افضل عمل اعمله. فلا بد ان نكتشف من هم زوارك».

ولما تخطيا عتبة الباب، وجدا ماتيلد، وهي سيدة متقدمة في السن، تقف في الممر وقد عقدت شعرها على شكل كعكة عند مؤخر عنقها. فنظرت الى سمانثا والارتياح باد في محياها: وخاطبتها بالايطالية وهي تشير الى باب البهو:

«عندك زوار من ميلانو».

عبست سمانثا لان مظاهر الحلم اخذت تطغى على يومها ابتداء من الرسالة الزلزال، وانتهاء بالزائرين الغريبين. لقد بدأ عالمها المحدود يتسع على نحو مخيف.

وقف بنيتو في القاعة ينتظر عودة سمانثا التي دخلت لكي تلبس ثوباً لائقاً. وعادت بعد بضع دقائق وقد نشفت شعرها حتى كاد يجف، ولفته بمنديل من القطن الاصفر صنعته بيدها. لم تكن تملك مالاً كافياً للانفاق على ملابسها. واكتشفت ان شراء القماش من السوق وخياطته بيدها يوفر لها بعض المال لشراء الحاجيات الضرورية. وهنا سألت بنيتو:

«هل ابدو لائقة؟».

خفض رأسه مطرقاً لانها تبدو جميلة في عينيه كيفما كانت. فنظرة واحدة اليها تكفي لكي يندفع الدم في عروقه وينبض قلبه بعنف. قريباً آه، وقريباً جداً! ينبغي ان تقترن به. فهو لا يستطيع الانتظار مدة اطول. لقد أرادها بكل جوارحه. انها تبدو ببشرتها الشقراء وشعرها الفتان مختلفة عن بنات قومه ذوات الشعر الاسود. وقد تأخر قرانهما كثيراً. فلو كانا متزوجين عندما وصلت الرسالة هذا الصباح، لما امكنها ان تتحدث اليه بنفس الطريقة ولكانت عندئذ زوجته، واماً لطفله البكر. ربما.

وتجاوزا عتبة ردهة الاستقبال ليجدا رجلين جالسين على مقعدين متقابلين يدخنان ويشربان القهوة المرّة التي غلتها لهما ماتيلد. وكان الزائران الجالسان يكبران الشابين الداخلين سناً، اذ كان اصغرهما يناهز الخمسين من العمر. ولما دخلت سمانثا، وقفا باحترام. ثم تقدم اكبرهما سناً عيياً. وسألها بلغة انكليزية تغلب عليها اللكنة الايطالية:

«هل انت الآنسة كنغزلي؟».

«اجل، انا هي».

صافحت الزائرين الوقورين وقد خالتهما شريكين لوالدها، خصوصاً وانهما قدما من ميلانو. ولعلهما قدما لامر يتعلق بالمعرض. ثم استأنف الرجل حديثه مبتسماً:

«اسمي أرتورو سيوني. وهذا شقيقي جيوفاني. انا محاميا والدك».

وهنا تردد قليلاً:

«هل تتكلمين الايطالية يا آنسة كنغزلي؟».

ابتسمت سمانثا وخفضت رأسها:

«استطيع التحدث بلغتك اذا كان هذا اسهل».

فتحول الرجل الى الايطالية:

«حسناً. تسلّمنا جواباً من جدتك، ونأمل ان تكوني قد تلقيت خطاباً مشابهاً . . .

هل هذا صحيح؟».

اطرقت سمانثا:

«هذا ما حدث بالضبط. ولكن، على الاقرار بأني لم اكن اعلم ان لي اقارب. فابي لم يخبرني شيئاً عن هذا الامر».

«اعلم هذا. اما الآن، فقد طلبت الينا جدتك ترتيب سفرك الى انكلترا. فهل اوضحت لك ذلك في رسالتها؟».

«اجل. الا اني لم اتغلب على صدمتي الاولية بعد».

فعلق الرجل الاصغر سناً متكلماً للمرة الاولى:

«هذا مفهوم. ولقد نصحنا والدك دوماً بأن يطلعك على الحقيقة احتياطاً لمثل هذا الحادث المؤسف. لكني احسبه وجد صعوبة في اعلامك بالحقيقة التي عشت طويلاً دون ان تعرفيها. ولعله خاف بعض الشيء».

«خاف؟».

«اجل. كنت انت المبرر الوحيد لاستمراره في الحياة. ولو عرفت ان لك اماً في انكلترا، لكنت اصررت على العودة الى وطنك ومقابلة والدتك. ولعله خشي ان تفضلي طريقتها في العيش والحياة على طريقته».

«آه! كيف بوسعه ان يفكر بهذه الطريقة؟ كان يعرف اني مفتونة بالعيش هنا، واني لم اكن لأتركه وحده».

واحست سمانثا باضطراب شديد. فتوسل اليها الزائر بأن تهدئ

روعها:

«ارجوك الا تزعجي نفسك. فقد مات والدك سعيداً لانه لم يجبرك بالواقع، واستطاع ان يكيّف حياتك وفقاً لمفهومه. ولا اظنه كان يطمح الى اكثر من ذلك».

«هذا واضح».

لم تثق سمانثا بما قاله. وتكلم آرتورو سيوني بلهجة تنزع الى الجدية:

«والآن، دعينا نتناول التفاصيل. ان جدتك تريد ان تسافري من ميلانو الى لندن في اقرب وقت ممكن. وبالامكان تصفية اعمالك هنا بسهولة طبعاً. اما الفيلا، فكبيرة، ولا يمكنك استئجارها بمفردك. وينبغي ان تكوني قد قررت بعض الامور المتعلقة بمستقبلك».

فهمست سمانثا بشيء من الحياء وقد احتلت احد المقاعد فيما امتقع لونها:

«ليس هذا صحيحاً بالضرورة».

وتملكها فجأة شعور بضخامة الامور التي يتوجب عليها اداؤها. وانتابها الوهن. فتأملها آرتورو بقلق وصاح:

«اعذريني. فلا بد انها كانت صدمة عنيفة لك. ولقد حاولت بحماقتي المعهودة ان استعجل قرارك لان جدتك اوحت لنا في رسالتها بضرورة الاسراع في العمل، مما دفعنا الى وضع تصوّرها في حيز التنفيذ».

وتشنجت سمانثا وهي تفكر بالفجوة التي قامت بين والديها. وتوصلت بنتيجة معرفتها لحساسية جون ورهافة حسه الى التكهن بان والدتها قد آذته اشد الاذى حتى حزم امتعته وهجر بلاده. وقالت آخر الامر:

«اجل. لقد فهمت. و... ولعله افترض اني سأذهب الى انكلترا عند وفاته مع انه لم يرجع بنفسه».

فعلق جيوفاني:

«الزمان كفيل بتغيير امور كثيرة. اما الظروف، فتتغير هي ايضاً، وبصورة اكبر. كان والدك يعرف ان ما يشكل قاسماً مشتركاً بينكما لن يدوم الى الابد. وينبغي بالتالي ان تعرفي الحقيقة وتقرري بنفسك الطريق الذي تختارين. ماذا يمكنك ان تفعلي؟ هل تفكرين بوظيفة معينة؟».

فاوضح بنيتو بحدة:

«انا مخطوبان. اليست الخطوبة بحد ذاتها وظيفة؟ ام انك تعتبر مستقبلها غير مضمون بين يدي؟ ولماذا يؤمّن لها شخص غريب ما استطيع توفيره انا؟ وبعد...».

تنهدت سمانثا وهي تخاطب بنيتو:

«بنيتو! لسنا مخطوبين. كلا، اننا لم نخطب بعد! ارجوك! اني بحاجة للتفكير».

فهز آرتورو كتفيه:

«اذا شئت البقاء في هذه البلاد يا آنسة، فستعلم جدتك بالامر. فلا حاجة بك للاتصال بها او الكتابة اليها اذا لم تكن لديك الرغبة وقرارك الآن في يديك اذ يسمح لك سنك باختيار الطريق الانسب».

مرّرت سمانثا لسانها على شفتها العليا قائلة:

«اشعر بالفضول طبعاً. فهل تدريان سبب انفصال والديّ؟».

رد جيوفاني:

«انهما مطلّقان. هذا كل ما نعرفه. لقد ائتمننا والدك على سره. ثم اننا لا نعلم القصة بكاملها. لذلك من واجبك ان تكتشفيها بنفسك».

«حسناً. فهمت».

انهت سمانثا شرابها، ووضعت الكوب على المنضدة لتتأمل بنيتو المكفهر الغاضب.

ثم حنت رأسها قليلاً، ولوت اصابعها قائلة:

«لقد حان وقت الغداء. فهلا تفضلتما ايها السيدان بتناول الغداء معنا؟».

فابتسم لها جيوفاني:

«هذا لطف كبير منك يا آنستي. اننا ممتنان لدعوتك».

طمأنتهما سمانثا:

«ساعطيكما جوابي المنتظر بعد الغداء».

كانت ماتيلد تعمل في المطبخ عندما خرجت سمانثا للبحث عنها. وقد تركت بنيتو مع ضيفيها. وجلست على اللوح الذي عملت ماتيلد عليه، واخذت تشرح لها بتأنٍّ كل ما حدث. فلم تقاطعها السيدة العجوز. وعرفت سمانثا انها ستفتقدها كثيراً ان هي قررت السفر.

وبينما غسلت ماتيلد الخضار واعدت السلطة، تأملت سمانثا بحيرة. ثم سألتها:

«هل ستذهبين الى انكلترا؟».

حملت كلماتها معنى القرار، فبدا الاستغراب على وجه سمانثا:

«هل تظنين ان علي الذهاب؟».

اكتفت ماتيلد بهز كتفيها:

«لست ادري يا سمانثا. لكني اعلم امراً واحداً، وهو انه اذا لم تذهبي، فانك ستتساءلين طوال عمرك عما اذا كان يجب ان تذهبي ام لا. ما هو مبرر وجودك هنا؟ الزواج من بنيتو الشاب! من يدري ماذا يحل بكما بعد خمس سنوات من الزواج؟ لعلك لن تقتنعي بحياتك كما كنت تحلمين. ولن يكون لك مهرب ساعتئذ لان عقيدتنا لا تسمح بالطلاق. تأكدي من حقيقة مشاعرك قبل التزامك بهذا الرباط».

«آه يا ماتيلد! انك تصورين لي امراً مخيفاً».

«أليست اقوالي صحيحة؟ الا تعتبرين الرتابة، وانت في ميعة الشباب والعالم لا يتسع لاحلامك امراً مخيفاً وموحشاً؟ هل ترضين فعلاً بانجاب عدد من الاطفال ورعايتهم؟ بنيتو افضل شاب في القرية. لكن بنيتو ايطالي. اما انت، فلا. وارجو ان تذكري ذلك دوماً. فانت لا زلت انكليزية بالرغم من كل ما فعلته في الماضي، وبالرغم من طلاقتك في تكلم الايطالية. اني آسفة اذا كنت كمن يقلل من شأن ما عملته. غير انك تعرفين اني على صواب. لقد قرر عقلك قراره النهائي. اما قلبك، فلا يزال متردداً ومتقلباً. تريدين الحصول على افضل ما في الحضارتين والعالمين، كما ترغبين باختبار الزواج لفترة. غير ان الزواج ليس مؤقتاً او لغرض الاختبار. انما الزواج ائتمان الحبيب على ذاتك مدى العمر. وارجو ان تحفظي ذلك جيداً على الدوام، انّى ذهبت واياً من الرجال تزوجت».

وجهت سمانثا التفاتة حنو الى ماتيلد:

«انك مصيبة يا ماتيلد كعادتك. ولكن، ماذا عنك؟ ماذا ستفعلين؟».

علت وجه ماتيلد ابتسامة هادئة:

«لقد تقدمت كثيراً في السن حتى اصبحت لا اكترث بامكان الاستغناء عن عملي. وشقيقتي المقيمة في رافنا ستسعد بصحبتي. لا تخشي شيئاً علي لاني لن اجوع مع شقيقتي الميسورة الحال. اهتمي بنفسك فقط. اذهبي واحصلي على ما تشائين دون ان ترضي بما هو دون مستواك قيمة، وعاملي الجميع على انهم انداد. فهكذا لن تخطئي كثيراً».

وافقتها سمانثا على رأيها مبتسمة:

«حسناً. سأخبر الاخوين سيروني بالامر. واني اشكرك على نصيحتك ولا شك اني سافتقدك كثيراً».

«اذا حدث ان عدت، فزورينا في منزل شقيقتي في رافنا. لا تضطربي، بل كوني صادقة وقوية لكي يتحقق لك النجاح في حياتك. فقوة الارادة ووضوح الهدف يحلان معظم المشاكل في الحياة. لا تتصرفي كالاولاد، فانت شابة، انما تصرفي كما يليق بفتاة في عمرك، وحافظي على استقلالك في التفكير».

كان بنيتو يجلس مكتئباً على الشرفة عندما خرجت سمانثا اليه لتبلغه ان الغداء جاهز. فالقى عليها نظرة حزينة جعلتها تحس بالذنب لانها سببت له هذا الانقباض. ثم سألها مهتماً:

«انك ستسافرين أليس كذلك؟».

هزت سمانثا كتفيها:

«علي ان اذهب يا بنيتو».

«لا افهمك يا سمانثا علماً باني كنت اعتبر نفسي قادراً على فهمك. غير اني اكتشفت خطأي».

بسطت سمانثا يديها بيأس:

«هل تريدني ان اتزوجك، ثم اقضي بقية عمري اتساءل اذا كنت فعلت ما هو صالح لي؟».

«بالطبع، كلا. ان الشك لم يساورنا قبل وصول الرسالة صباح اليوم».

«لم يكن هناك اختيار آخر. وارجو ان تفهمني يا بنيتو. فانا لم اترك هذه البلاد منذ كنت في الرابعة من عمري».

«وانا عشت هنا طوال حياتي».

«لكنك ايطالي».

«وستصبحين انت ايطالية مثلي عندما نتزوج».

«اسمياً فقط يا بنيتو. فانا انكليزية».

«لم اكن اعرف ان هذا يزعجك من قبل».

«آه، يا بنيتو! حاول ان تفهمني. اني افكر بك كثيراً. واذا تسنى لي السفر سيصبح بامكاني رؤية الأشياء بمنظار صحيح. فاذا كنت احبك سأرجع اليك. وانت تعلم ذلك. اما اذا كنت تحبني، فعليك ان تعلم ان الحب لا يموت بمجرد ابتعاد الحبيبين عن بعضهما».

علا التجهم سيماء بنيتو بعد ان عرف انها محقة في اقوالها. الا انه ظل على خوفه من تأثير البعاد عليها، خصوصاً وانه لم يكن يثق بحبها له كما يثق بحبه هو... مع انه لاحظ رغبتها الصادقة في عدم ايذائه. ثم خاطبها ببرودة:

«واذا كنت مصممة على السفر، فليس بوسعي ان أمنعك من تحقيق هدفك».

فاجابته بحزن:

«بل بامكانك ذلك. فانت قادر على ان تأمرني بالبقاء هنا. وحينئذ لن يكون بوسعي الاعتراض على مشيئتك».

فهز بنيتو رأسه متنهداً:

«صدقت لكني لن اجعلك تقفين هذا الموقف الحرج. فانت امرأة حرة يا سمانثا. ولكن، ارجوك عودي الي».

فاحمرت سمانثا خجلاً وحياء:

«عندما تنظر الي نظرتك هذه يا بنيتو، اتمنى لو اني لم أر الرسالة قط».

ردّ عليها متأوهاً:

«وانا كذلك. اما الآن، فينبغي ان تعطي جوابك للأخوين سيوني».

اجابت سمانثا:

«أجل. وسوف اعلم عما قريب لماذا تصرفت امي على هذا النحو. واني آمل الا تكون قاسية ومخيفة كما يخيّل اليّ».

٢ـ حب في الطائرة

اجتاز باتريك مالوري مدرج مطار ميلانو المعبّد تعبيداً متقناً، وجثمت أمامه الطائرة البراقة التي ستقلّه الى لندن، والحياة الصاخبة التي ابتعد عنها للاستمتاع بفترة هدوء قصيرة. ولطالما شعر بالاسى وقت مغادرته ايطاليا بعد قضاء مدة فيها. فهنا موطن أمه التي قضى في صحبتها أربعة أسابيع في فيلّتها الواقعة عند ضفاف بحيرة كومو حيث استحم في اشعة الشمس وتمتع باسترخاء تام. اما حياته في لندن، فمحمومة بالعمل ومرهقة للاعصاب احياناً. وقد كانت اجازته متعة فعلية. ولم يحس قط انه كان في حال احسن من حاله الآن، وقد اسمرّ جلده واستعاد نشاطه واستعد لاستئناف عمله وتحمل مسؤولياته في لندن.

كان باتريك في اواسط العقد الرابع من عمره، جذاباً طويل القامة نحيلها. وكان شعره فاحم السواد، في حين كان يعزو سمرة بشرته الى كون أمه ايطالية. اما عيناه، فكانتا تشعان ببريق غامض عندما يرتسم التهكم على تعابير وجهه. ولم تبلغ قسماته مستوى الوسامة، الا انه يتمتع بسحر غريب له جاذبية آسرة. وقد فطن الى الأثر الذي يتركه على افراد الجنس اللطيف. كما كان بوسعه الافادة من قدرته هذه بشكل يتلاءم مع اغراضه. ولم يعش ستة وثلاثين عاماً دون ان يعرف العديد من النساء. لكنه وجدهن جميعاً من نفس الطينة وعلى نفس النمط.

ومرر يده بسرعة فوق شعره القصير. ثم ارتقى السلم الموصل الى مدخل الطائرة مبتسماً ابتسامته الدافئة الجذابة، فاخجل مضيفته الشابة. وقادته الى مقعده حيث القى حقيبة اوراقه بجانبه، ثم مدد رجليه بارتياح.

ولما اضحى في طريق عودته فعلاً، انتقل بافكاره الى لندن والى مشاريعه الملحّة. فهناك على سبيل المثال المسرحية الجديدة، التي قد تحتاج بعض فصولها الى اعادة كتابة.

كان جو الطائرة الحار سيبرد بعد اقلاعها. فمد باتريك يداً كسولة لفك زر قميصه الاعلى المغطى بربطة عنقه المعقودة بدقة بالغة، وهكذا لم تعد الرحلة تتطلب منه مزيداً من الجهد، بل بات بامكانه ان يغرق في مقعده ويتمتع بالتحليق.

وتحول بافكاره الى المرأة التي شغلت معظم اهتمامه اثناء عطلته. انها تنتظره في لندن. وتساءل عما اذا كان الوقت قد حان ليفكر جدياً بمسألة الاستقرار العائلي. فحياة العزوبة جميلة، الا ان فكرة الاستقرار في اسرة ينشئها راقت له. وقد اعربت امه، التي تريده ان يتزوج وينجب الاطفال، عن الرأي نفسه عندما تناقشا في أمور حياته. فهي تريده ان يعتبر بشقيقته المتزوجة منذ ما يزيد على ثمانية عشر عاماً، وبأولادها الستة. صحيح ان جيني تكبره بعشر سنوات، لكن يجدر به انّ ينحى بافكاره هذا المنحى على ما يظن.

والقى نظرة خاطفة على مباني المطار عبر نافذة الطائرة وقد اوشكت على الاقلاع. وسره عدم اصرار والدته على اصطحابه الى المطار لوداعه، فهو يكره الوداع الطويل لاسيما في الاماكن العامة.

واسترعى انتباهه شاب وفتاة واقفان عند البوابة الموصلة الى طائرته. وبدا الشاب مختاظاً. كما خيل الى باتريك ان الشاب اخفق في محاولته معانقة الفتاة ولما حقق هدفه اخيراً، افلتت الفتاة منه واندفعت على المدرج صوب الطائرة. والواضح ان الشاب كان يشيع الفتاة الى المطار حيث انقلب وداعها عاطفياً ولم يعد بوسعها السيطرة على مشاعرها.

وجد باتريك في المشهد بعض السلوى. فالفتاة انكليزية على ما يبدو. الا ان المرء لا يستطيع الحكم على هذه المظاهر في ايامنا الحاضرة. فربما نشأت الفتاة اثناء اجازة ونمت بسرعة تحت أشعة الشمس الحارة، او ربما كانت ايطالية تغادر موطنها للمرة الاولى لسبب أو لآخر. واعتبر باتريك، بسخريته المألوفة، مشاعرها حارة للغاية. منذ متى كان الشباب يزخر بهذه المشاعر الفياضة؟ فهو، شخصياً، لا يذكر ان مثل هذا التفجر قد انتابه

مرة. ولعله كان محظوظاً، او احد الاشخاص الذين لا تستحوذ الاحاسيس على مجمل مشاعرهم. وفي أي حال، لم تخدعه أي امرأة. اشعل سيكارة وقد اغتبط لانه تجاوز المرحلة التي تخدعه فيها الازهار المبطنة بالاشواك. فاذا هو أراد الزواج . . . الدولاء مشروطة الى حد بعيد . . فانه سيتزوج لضرورات معيشية، لا لدوافع عاطفية.

ومشت الصبية بعد دقائق معدودة في الممر الممتد بين المقاعد بصحبة المضيفة، التي اجلستها على مقعد بجوار باتريك. وتطلع اليها الاخير باهتمام ليكتشف انها تبدو عن قرب جذابة للغاية. واعجبه انسدال شعرها فوق كتفيها.

ولم تنتبه سمانثا بادىء الامر الى تفحّصه لها بسبب انهماكها في مشاعرها المتضاربة. ولاحظ اهدابها السوداء الطويلة المجعدة، وبشرتها القشدية المسمّرة عند طرف انفها. ولم يحاك ثوبها آخر الصرعات، اما حذاؤها فكان بلا كعبين ولا يثير الاعجاب. لكنه رأى انها ستلفت الانظار ان هي ارتدت الملابس اللائقة. وفجأة فطنت سمانثا الى وجوده بقربها، فرمقته بنظرة خاطفة. والتقت عينا باتريك بعينيها لحظة. فلم تزعجه تعابير وجهها الشديد الحمرة. ولفّت سير حقيبة يدها حول أصابعها.

ودبّت الحياة في محركات الطائرة بعد دقائق. وكتبت امام الركاب ملاحظة ضوئية تذكرهم بضرورة الاقلاع عن التدخين مؤقتاً وشد احزمة الامان حولهم.

وربط باتريك حزامه بسهولة توحي بطول مراسه. اما الفتاة، فتعاملت مع حزامها بارتباك. ولم يتمالك باتريك نفسه من سحب الحزام من بين اصابعها المتراخية وشدّه حولها باحكام. فهمست مبتسمة وقد برزت اسنانها البيضاء.

اكتفى باتريك بمبادلتها الابتسام، فيما اطفأ سيكارته. وشرعت الطائرة تتحرك ببطء وثبات الى ان أسرعت في سيرها فوق المدرج.

وتمسكت بذراع مقعدها، بينما وجد باتريك نفسه يراقبها ثانية. فاتضح له خوفها، الامر الذي ملأه اشفاقاً عليها علماً بانه لا يهتم عادة بالمسافرين المضطربين. ثم خاطبها بارتياح:

«استرخي! لقد بدأنا نسبح في الجو. هل هذه أول مرة تطيرين فيها؟».

اطرقت. ثم اجابته:

«اجل، على ما اذكر. لكن يبدو أني جبانة».

هز باتريك كتفيه العريضتين:

«اعتقد ان جميع الناس يجبنون احياناً. وعملية اقلاع الطائرات مخيفة للذين لم يألفوها».

ثم التفت الى الاعلى وقال:

«ها اننا انتهينا. بامكانك الآن حلّ حزام الأمان».

«الحمد لله».

وارخت الحزام، ثم استرخت في مقعدها.

وحلّ باتريك حزامه، فيما قدم لسمانثا علبة السكاير الرقيقة المصنوعة من البلاتين والتي حفرت عليها حروف اسمه الاولى:

«هل تدخنين؟».

اخرجت سيكارة قائلة:

«اشكرك».

ثم انحنت الى الامام لتشعل طرف سيكارتها بواسطة ولاّعته. وتراجعت الى الوراء بعد ذلك لتتأمله عن كثب.

واشعل باتريك سيكارة لنفسه، واخذ يتساءل بشيء من المرح عن سبب انشغاله بهذه الفتاة الى هذا الحد. فهو نادراً ما يحدّث المسافرين معه في الطائرة خوفاً من ان تتحول احاديثهم الى مجادلات عقيمة. والى ذلك، فللناس عامة مقاصد خفية من التحدث الى رجل شهير مثله. وقد ازداد حذره من الملاحظات الهامشية التي توجّه اليه، وغالباً ما كان يقرأ او يدرس بعض جوانب من عمله اثناء طيرانه.

غير ان الفتاة لم تكن من هذا الصنف من الناس اذ لا يبدو انها عرفته، او ارتبطت بعالم المسرح والفنانين. وقد اكدت ملابسها القديمة الطراز هذا الرأي. واخذ مجة من سيكارته. ثم تفحصها بعينين ضيقتين وسألها:

«ما اسمك؟».

فردّت على الفور:

«سمانثا كنغزلي. وما اسمك انت؟».

«آه».

تردد باتريك خشية ان يفتضح امره. فان كانت الفتاة لم تعرفه بعد، فان اسمه سيدلها عليه. لكنه قال مرغماً:

«باتريك مالوري».

لا ريب انه صدم اذ كان يتوقع ردة فعل معينة من الفتاة. فمن الواضح ان اسمه لم يعنِ لها شيئاً. وهنا تنهد مغتبطاً، لانه ان كان لا يزوّر هويته، فهو يرتاح الى لقاء شخص لا يعلم عنه شيئاً. ثم عاد يسأل الفتاة:

«هل تقصدين لندن؟».

«اجل. ولكن كنقطة انطلاق الى مقاطعة ولتشاير. هل تبعد هذه المنطقة كثيراً عن لندن؟».

خفض باتريك رأسه وقد برز المرح على ملامحه:

«نوعاً ما. لقد حسبتك انكليزية، ومع ذلك فانت لا تعرفين الكثير عن انكلترا، الا توافقين؟».

«اني انكليزية. وقد ولدت هناك على الأقل. لكني عشت في ايطاليا منذ كنت في الرابعة من عمري».

تجهم محيا باتريك:

«آه، فهمت. انك لم تزوري انكلترا منذ ذلك الوقت؟».

«كلا، ابداً. فوالدي لم يرغب في ذلك».

وصمتت سمانثا برهة. فاحسّ باتريك انها تضمر اكثر مما تقول. فغالبه الفضول ولم يمنع نفسه من السؤال:

«اليس والدك مسافراً معك؟».

«كلا. فوالدي متوفٍ. لقد قتل قبل شهر من اليوم».

«اني آسف».

وتأمل سيكارته لحظة. يبدو ان اسم كنغزلي يعني له شيئاً. وبعد ان اخبرته ان والدها قد قتل، تذكر اين سمع هذا الاسم. فسأل بعطف:

«جون كنغزلي، هو والدك، اليس كذلك؟».

طرفت عينا سمانثا وهي تجيب:

«اجل. لماذا. . . هل كنت تعرفه؟».

«ليس بالضبط. لقد التقيته في معرضه في ميلانو. وكان معرضاً رائعاً. وعليه، لا ريب ان لقاءنا تمّ قبل. . .».

فاطلقت سمانثا تنهيدة:

«صحيح. اني لا ازال اشعر ببعض الضياع و. . . وهل اعجبتك المنحوتات؟».

سحب باتريك سيكارته، ورد:

«كثيراً. وهكذا، فقد ينتهي الآن؟».

ترددت سمانثا:

«ليس بالضبط».

وتوقفت بارتباك. اما باتريك، فوجّه اليها نظرة متفحصة. واتضح لديه انها لا ترغب في التحدث عن مستقبلها القريب. فغيّر الموضوع وانتقل بالحديث الى شؤون عامة مثل الكتب والفن والموسيقى. ولم يزعجه حديثها الخجل نوعاً ما، بل انه فرح بالعثور على فتاة لم تصقلها الحياة والتجارب كما يبدو. وفجأة، سألته:

«اخبرني ماذا تعمل».

اشعل باتريك سيكارة أخرى، وفكر انه يدخن كثيراً اليوم. ومكّنته فترة الصمت القصيرة من التفكير قبل ان يجيب باقتضاب:

«اني اعمل كاتباً».

«وماذا تكتب؟».

هز باتريك كتفيه. ولم يرغب في التورط بحديث يتعلق بعمله. واشتد ما ارتاح اذ دنت منهما المضيفة لتسألهما عما اذا رغبا ببعض الشراب.

فوجئت سمانثا بالترتيبات الجديدة عليها. وكان وقت الغداء قد حان، فتمنّت على المضيفة قائلة:

«ارجو ان تحضري لي بعضاً من عصير البندورة».

غير ان المضيفة لم تكترث الا لباتريك مالوري الذي عرفت هويته جيداً، وادركت مدى تأثيره في دنيا المسرح. والى ذلك، فان مزاياه الجسدية كانت بحد ذاتها عاملاً يجلب اليه اي امرأة. وأكرهت المضيفة على الابتعاد عنهما بعد ان اسمعها طلبه. وهنا سألته سمانثا وهي تلتفت اليه بتمعّن وقد عضت شفتها:

«لماذا تصرفت المضيفة بهذه الطريقة الغريبة؟».

ابتسم باتريك قليلاً فيما اجاب بتندّر:

«بطريقة غريبة؟».

فخجلت سمانثا:

«اجل. ولا ريب انك تفهم قصدي. فهي. . . حسناً. . .».

فتأملها باتريك عبر سحابة من دخان سيكارته:

«عندما تزداد خبرتك في الحياة، فانك لن تطرحي مثل هذه الاسئلة على احد».

هزّت سمانثا كتفيها:

«الن افعل؟».

قدّم الغداء بعد قليل. وكان وجبة شهية مع انه طهي قبل اقلاع الطائرة. والقت سمانثا نظرة على عالم السحاب القطني الممتد تحت الطائرة. وتعجبت لاستفظاع الناس الطيران. فلم يكن هناك شيء على الاطلاق يمكن رؤيته. ولم يختلف السفر في الطائرة عن ركوب السيارة في موطنها او بلدتها.

بلدتها! عليها ان تتخلى عن التفكير بان ايطاليا هي موطنها وان بيروزيو هي قريتها. فسيصبح موطنها عما قريب في مسكن دافئ في مقاطعة وتشاير الانكليزية. ولا مجال للرجوع عن هذا القرار.

فان هي عادت الى ايطاليا، فسترجع لتتزوج بنيتو. الا انها اكتشفت انه كلما زادت المسافة بينهما، كلما تضاءلت الروابط التي تجمعهما.

وانتهزت فرصة فراغها من غدائها لزيارة دورة المياه المخصصة للسيدات. فغسلت يديها، وسرّحت شعرها. ولمحت الخوف في العينين اللتين انعكستا امامها على صفحة المرآة، فوبّخت نفسها. لماذا تخاف؟ فهي لا يمكن ان تخجل من أي شيء فعلته، بل الحقيقة ان المرأة التي ستلتقيها هي التي يجب ان تخجل.

وشدت كتفيها، فيما قفلت راجعة الى مقعدها لتجد باتريك مالوري منهمكاً في قراءة بعض الاوراق التي اخرجها من حقيبته. ولم يتكرم عليها بنظرة واحدة بينما جلست بجانبه ثانية. وعادت افكار سمانثا الى مشكلة الساعات القليلة القادمة. وشعرت ان اضطرابها يتزايد شيئاً فشيئاً، وان فرجها سيتم عندما تغيب شمس اليوم.

وانتقل بصرها مجدداً الى رفيقها وكأنها مشدودة اليه، والى ملامحه

الجذابة، وتحرره وسلوكه اللبق ودقة عمله. وتوقعت ان يكون قد عرف العالم على حقيقته وادرك جوهر الحياة ومعناها. وبدا لها شاباً، فكرت انه يناهز الثلاثين من العمر. وتساءلت عما اذا كان انكليزياً، وذلك لان اسمه أكّد انه انكليزي، في حين برزت ملامح أجنبية على بشرته السمراء وعينيه العسليتين. عينان كعيني النمر. بل ان سمانثا رأت فيهما شبهاً بعيني النمر الذي شاهدته في سيرك جوّال. وفكرت فيما اذا كان خطراً مثله. ان من السهل التحدث اليه. ولذلك يمكنها ان تفهم انخطار اي امرأة وانشراحها بما يعيرها من الاهتمام. وقد عامل سمانثا وكأنها طالبة ثانوية اكبر سناً من رفاقها، الامر الذي جعلها تتساءل عما اذا كانت تتصرف بهذه الطريقة. فمن المزعج ان يشعرك مثل هذا الرجل انك غير لبق في حين كنت تعتبر نفسك شخصاً بالغاً وناضجاً. وليس من السهل مقارنة أي من رجال القرية بباتريك مالوري.

وهو الى كل ذلك كاتب. وحاولت ان تستفسر عما يكتبه. لكنه لم يشأ التحدث عن الامر. اما المضيفة، فمن الواضح انها تعرفه. كما انه شخصاً توقّع ان تتعرف سمانثا عليه من خلال اسمه. وانصرفت عن هذه الخواطر للتفكير ببنيتو الذي اصر على مرافقتها الى المطار وتوديعها هناك. لقد تصرف بالطريقة التي كانت تتوقعها. فبعد ان رضي وسلّم مبدئياً بالواقع، ارتسم العبوس والاستياء على محياه ثانية. واعتقدت سمانثا ان اهله هم الذين يتحملون الملامة اذ لم يتقبلوا فكرة سفرها الى انكلترا، حتى ان والدته كشفت عن قلة ذوقها واحساسها. وصاحت في وجه سمانثا:

«ان بنيتو يحتاج زوجة لا امرأة تتقاذفها الاهواء كما تتقاذف الريح القصبة. فتندفع كالسهم الى انكلترا لمجرد توهّمها ان لها هناك اقارب لم ترهم منذ سبع عشرة سنة. لذا لا تلومي بنيتو اذا تزوج باخرى اثناء غيابك. فكثيرات من فتيات القرية على اتم الاستعداد لانتهاز الفرصة».

وسمعت سمانثا كلاماً كثيراً من هذا القبيل. فغادرت القرية وهي تعرف انها لن تزورها ثانية على الارجح. وهذه الحقيقة مسؤولة بشكل رئيسي عن الخوف الذي انتابها. فهي قطعت كل صلاتها بالماضي. وهناك عروسان شابان من بلدة رافنا يشغلان الفيلا الآن. اما ماتيلد، فقد انتقلت الى رافنا لتعيش مع شقيقتها. وسمانثا تشعر في هذه الاثناء بانتقالها

السريع من مرحلة الى مرحلة خصوصاً وانها لم تبق على صلات بمستقبلها في ايطاليا. ومن يدري!

وقطع باتريك عليها افكارها اذ قدم لها سيكارة اخرى.

«واری انك غرقت في تفكير عميق».

ابتسمت سمانثا ابتسامة ملؤها الحنين كما ظن باتريك:

«اجل. ولكن، هل انتهيت من عملك؟».

هز باتريك كتفيه واجابها بصورة ملتبسة:

«لا اخالني سأنتهي منه ابداً».

تنهدت سمانثا بعد ان استوعبت كلامه وسألته:

«كم سيمضي من الوقت قبل . . . ان نحط في لندن؟».

تطلع باتريك الى ساعته:

«ربع ساعة تقريباً. هل سيستقبلك احد في المطار؟».

«اجل. ستكون جدتي في استقبالي».

«حسناً. وهل ستتوجهين فوراً الى ولتشاير؟».

أمالت سمانثا رأسها بحركة سريعة:

«لست ادري. فجدتي مقيمة حالياً في فندق سافوي. ولست اعرف بالضبط ماذا تنوي ان تفعل».

«صحيح؟».

ترك قولها انطباعاً حسناً في نفس باتريك الذي لم يتصور ان هذه الشابة الرثة الملابس من الناس الذين يقيمون في فندق سافوي. لكن المظاهر تخدع المرء احياناً.

«آمل ان تعجبك لندن».

«وهل تحبها انت؟».

رفع باتريك حاجبيه متكاسلاً:

«انها مكان صالح للعمل. الا انني افضّل مكاناً اكثر هدوءاً عندما يسمح لي وقتي بذلك».

فعبست سمانثا:

«آه، اني آمل ان احبها».

«وهل هذا مهم حقاً؟».

فشبكت سمانثا اصابعها بخوف. وازدادت حيرة باتريك. الا انه تغلّب على فضوله. فهو يهتم بالناس بصفته كاتباً. وقد وجد في سمانثا موضوعاً مغرياً اوحى له بالكثير. ورأى انه من المحزن ان تغيّر الحياة، التي تأمل سمانثا ان تستمتع بها، قبول هذه الفتاة الطبيعي للعالم واقبالها عليه.

حطت الطائرة عند الواحدة والنصف بتوقيت لندن. ورفعت سمانثا معطف البوبلين الرقيق الذي ألقته بجانبها، ثم قصدت باب الطائرة مرتجفة. ولحق باتريك وقد سرّه التعبير الذي علا وجهها عندما لفحها الهواء الرطب المتدفق من خارج الطائرة. وكان يوماً خريفياً بارداً. فشدّت سمانثا معطفها حولها وهي ترتعش. وابتسم باتريك لها. فاحست انها صغيرة امامه هو الذي يبلغ طوله مئة وثمانين سنتيمتراً ويتمتع بكتفين عريضتين وجسم يضيق تدريجياً حتى الوركين. ثم خاطبها متندراً:

«الطقس دافىء نسبياً اليوم. ولكن، انتظري حتى تختبري الشتاء الانكليزي».

رفعت ناظريها اليه، فرأت فيه آخر حلقة تصلها بالاشياء المألوفة في عالمها. وهمست بعذوبة:

«كان والدي يقول دائماً ان مناخ انكلترا شديد البرودة».

وتنبه باتريك الى شيء يختلج داخله دون ان يستطيع تحديده. الا انه شعر على حين غفلة انه اصبح مسؤولاً عن الفتاة. فمع انها ليست صغيرة ولا تلتصق بالآخرين طلباً لحمايتهم، غير انها تحلّت بروح رقيقة ولطيفة خشي ان تضيعها بسرعة في ضوضاء هذه المدينة المزدحمة.

ثم هبطا السلم معاً، واجتازا المسافة التي تفصلها عن مباني المطار حيث فرّقتهما المعاملات الرسمية. وانشغلت سمانثا بالاجراءات الغريبة عليها بحيث لم تفطن انها لم تعد ترى باتريك مالوري. واخذ قلبها ينبض بعنف فور تنبّهها للأمر اذ روّعها ما حدث. وتلفتت حولها بحثاً عن باتريك، بينما لمست يد كتفها. فاستدارت لتجده واقفاً وراءها. مررت لسانها على شفتيها فيما تنهدت بارتياح:

«حسبتك... حسبتك ذهبت».

فحانت من باتريك التفاتة جدية نحوها:

«و... !».

ضغطت سمانثا اسنانها على شفتها السفلى، وقد تبينت الحماقة في لهفتها وعلقت مرتبكة:

«لا... لا شيء».

وضغط على ذراعها بينما طلب اليها بلطف:

«هيا نخرج».

وانتقل باتريك بسمانثا عبر قاعة الاستقبال الى البهو العام حيث وقف رجل ارتدى بزة خاصة بسائقي السيارات يراقبها بطريقة غريبة. فسأل باتريك الفتاة:

«هل تظنين ان له علاقة بجدتك؟».

هزت سمانثا رأسها:

«لست ادري. هل اتوجه اليه بالسؤال؟».

«كلا. انظري الى شعره الابيض. سأسأله بنفسي».

وعاد باتريك بعد بضع دقائق بصحبة السائق ليخبر رفيقته:

«ان سيارتك تنتظرك. هل كل شيء على ما يرام؟».

وتطلعت سمانثا اليه:

«اجل. اشكرك شكراً جزيلاً».

واجابها مبتسماً:

«لا حاجة للشكر. لا تضطربي لانك ستكونين بخير».

وتصنعت سمانثا ابتسامة خفيفة قبل ان تستدير وتلحق بالسائق عبر البهو الواسع. ثم خرجا الى الشارع الممتد بمحاذاته حيث وقفت سيارة رولز رويس ضخمة بانتظار سمانثا. فساعدها بارنز، ساعدها الايمن... على حد ما قاله عندما عرّفها بنفسه... على دخول السيارة والجلوس في المقعد الخلفي.

ومضى السائق ليضع حقيبتها في صندوق السيارة بينما جلست سمانثا وهي تشعر بشيء من العزلة. وكم تمنّت لو طلبت اليه ان تجلس في مقدم السيارة. الا انها عزفت عن رغبتها لما ظهر لها من انضباط بارنز.

واصيبت بخيبة أمل لعدم استقبال جدتها لها. فقد كانت بحاجة الى الاحساس بانها شخص مرغوب فيه. اما الآن، فما عليها الا ان ترضى بمقعد منعزل في مؤخر السيارة الضخمة، وبارنز رفيقاً.

ووقفت امام مبنى المطار سيارة جغوار زرقاء تنتظر ركابها. وبينما ترقبت سمانثا انطلاق سيارتها، لمحت باتريك مالوري يخرج من القاعة وبجانبه سيدة شقراء نحيلة وقصيرة القامة.

كانت المرأة ترتدي معطفاً رائعاً من جلد النمر وكانت أجمل امرأة وقع عليها نظرها. فشعرها قصير جعد وقدها صغير متناسق الاجزاء. انفطر قلبها ألماً. وتمنت لو ان بارنز اقلع بعد دخولها مباشرة. ومع انها توقعت مثل هذا الامر الا انها احست بألم عميق وقد رأته يحدث أمام ناظريها فعلاً. فمن الطبيعي ان تنتظر حدوث ذلك لأن باتريك رجل مجتمع خبر العالم، ولا بد ان تكون حياته ملأى بالنساء.

عندئذ ارتقى بارنز مقعد السائق، وشغّل السيارة. واتكأت سمانثا على مسند المقعد الخلفي المغطّى بالجلد الفاخر وهي تتنهد. ولم ترغب ان يراها باتريك مالوري الذي ربما نسي كل ما يتعلق بها الآن.

وخفض بارنز الحاجز الزجاجي ليسألها:

«هل كانت رحلتك ممتعة يا آنستي؟».

انهضت سمانثا نفسها لتجيب:

«اجل، اشكرك».

وركز بارنز على قيادة السيارة من جديد. اما سمانثا، فلم تجد ما تحدثه به. ولعله اعتبرها حمقاء. لكنها كانت اليوم قد انهكت عقلياً وجسدياً تحتاج بعض الوقت كي تجمع افكارها. وانطلقت السيارة بها مسرعة، فيما خيم عليها الصمت. وانطبعت في ذهن سمانثا صورة مشوشة لسماء رمادية ملبدة بالغيوم، ومبانٍ شاهقة مكسوة بالرخام في بعض الاماكن. وخيل اليها ان مئات السيارات تطوي الارض في الاتجاه الذي يسيران به. ونجحت في ادراك عنصر السرعة. عاشت صخباً وازدحاماً واندفاعاً لم تخبره من قبل. ومع انها كانت في انكلترا، فانها لم تشعر بالغربة لأن انكلترا، قبل كل شيء، هي موطنها. وهي انكليزية بالرغم من انها تتكلم الايطالية وتتصرف كالايطاليين. ولما دخلت السيارة الى باحة فندق سافوي، تجسدت مخاوفها الكامنة، وبالكاد اجبرت نفسها على الترجل من السيارة بعد ان فتح لها الباب.

وتبعها السائق الى داخل الفندق حيث تكلم الى موظف الاستعلامات:

«هلا تفضلت وساعدت الآنسة كنغزلي على الوصول الى جناح اللايدي (السيدة) دافنبورت؟».

وابتسم برقة، فطرفت عينا سمانثا. اللايدي دافنبورت. ان جدتها هي اللايدي دافنبورت. واضطربت معدتها لان هذا كان مخيفاً اكثر مما توقعت.

وحمل احد خدم الفندق حقيبتها، ورجاها ان تلحق به الى المصعد. وتابع الحاضرون تقدّم سمانثا بعيون متفحصة ومستغربة جعلت الفتاة تنزعج من تنبيهها الى العيوب والنقائص في معطفها وحذائها الخالي من الكعب.

وتوقف المصعد عند الطابق الثاني. واقتيدت الفتاة عبر الممر الى جناح جدتها. ووقف الصبي بجانبها ينتظر الى ان فتحت الخادمة الباب، فترك سمانثا في عهدتها. وخالج سمانثا شعور بانها اشبه بحزمة تتناقلها الايدي، وتيقنت ان جدتها تبعث الرعب فيمن حولها. على انها تصورت انها بلغت هدفها عندما تناولت الخادمة معطفها بلطف لتضعه في الداخل:

«تفضّلي بالجلوس. ستوافيك اللايدي دافنبورت حالاً».

«اشكرك».

امتثلت سمانثا لتعليمات الخادمة، وجلست على اريكة واطئة. وغادرت الخادمة الحجرة لتعلم جدة الفتاة بان حفيدتها قد وصلت. ونظرت سمانثا حولها بشغف لترى ردهة واسعة زيّنت تزييناً انيقاً بسجادة سميكة لامست كل الفجوات القائمة في الجدار والمخصصة لوضع الأرائك والكتب. وكان اثاث الغرفة فخماً وغالي الثمن. وتميّز جوّها بدفء مريح بالمقارنة مع الهواء البارد خارج الفندق.

وفتح أحد الابواب بعد لحظات، ووقفت سمانثا مرتجفة اذ لمحت سيدة عجوزاً تدخل الغرفة وقد استندت بثقل على عكازها. كانت ضعيفة صغيرة الجسم بارزة القسمات غزا الشيب شعرها. وارتدت ملابس عصرية حريرية بلون الزهر. وتألقت عيناها الشديدتا الزرقة قليلاً.

انتصبت سمانثا امامها وهي تتساءل ماذا يجب ان تفعل او ان تقول. وابتسمت اللايدي دافنبورت لها، فبان اللطف والدفء على وجهها. وتخلصت سمانثا من بعض خوفها عندما سمعتها تقول برقة:

«سمانثا، يا عزيزتي، هل انت هنا؟».
ردت سمانثا بهدوء:
«جدتي! ان هذه اللفظة غريبة على مسامعي. فانا لم اعرف ان لي اقارب ابداً».

وانحنت سمانثا لتطبع قبلة على وجنة جدتها. وزال التوتر الذي انتابها فطوقت السيدة العجوز بذراعيها فيما احست ان عينيها اغرورقتا بالدموع وعلقت اللايدي دافنبورت وقد برق الدمع في عينيها هي ايضاً:
«هذا افضل. الا تجلس يا عزيزتي؟ فرجلاي لم تعودا كما كانتا».
وجلستا جنباً الى جنب على الاريكة. واخذت السيدة دافنبورت تتأمل حفيدتها، ثم قالت اخيراً:
«انك تشبهين جون اكثر مما تشبهين بربارا. آه يا سمانثا! لا تعلمين كم اشتهيت رؤيتك».
«ولكن، لماذا. . . ؟».
وتوقفت سمانثا فيما اجابت جدتها بلطف:
«سأخبرك بعد قليل يا عزيزتي. لكن، دعينا نتناول الشاي أولاً. ثم نبدأ بالحديث».
واحضرت الخادمة عربة الشاي. فاسكتت قرقعة فناجين الخزف الصيني والملاعق الفضية السيدتين فيما بدا انهما تتأملان بعضهما اذ لم يكن بامكانها تعويض ما فاتهما من الزمن.
ولما فرغتا من تناول الشاي، قدمت السيدة دافنبورت لسمانثا سيكارة اخرجتها من علبة صنعت من العقيق اليماني. واتكأت السيدة دافنبورت على المسند المغطى بالدمقس الحريري بعد ان اشعلت السيكارة لحفيدتها، ثم سألتها:
«هل تشعرين بالانتعاش الآن؟».
ردّت سمانثا مبتسمة:
«اجل. شكراً لك».
«اني اعتذر لعدم استقبالي لك في المطار بسبب بعض الاضطرابات في جسمي الهرم، واصرار طبيبي على أخذ قسط من الراحة كل يوم بعد الغداء. هل عثر بارنز عليك بسرعة؟».

ابتسمت سمانثا وهي تتذكر باتريك مالوري. ثم اجابت بهدوء:
«اجل».
«خيراً فعل».
وعضت اللايدي دافنبورت على شفتيها. واتضح لسمانثا ان جدتها وجدت صعوبة في استهلال الحديث معها. وأخيراً اقتنعت الفتاة ان جدتها ليست غولاً، بل سيدة لطيفة. ولكن، اين أمها؟ وهنا خاطبتها اللايدي دافنبورت متمهلة:
«احسبني سأباشر حديثي باطلاعك على اخبار ابنتي».
«تقصدين أمي؟».
تنهدت اللايدي دافنبورت:
«اجل، امك بربارا. انها ابنتي الوحيدة. وقد ولدت بعد ان كنا انا وهارولد على اقتناع تام اننا لن نرزق اطفالاً. وان ذكرت هذه الحقيقة امامك، فلأوضح لك سبب فساد بربارا وسوء اخلاقها. ولعلنا انا وهارولد نتحمل المسؤولية. فقد نمت بربارا وكبرت وهي تتصور ان لها الحق في امتلاك كل شيء تراه. ولما التقت والدك، ارادت ان تمتلكه ايضاً وهي لم تتجاوز الثامنة عشرة عندئذ.
والتقيا بعد شهرين من لقائهما وذلك بعد الحرب مباشرة كما تعلمين، اذ عملت بربارا، وهي نجمة صاعدة آنذاك، في فرقة مسرحية لندنية ترفه عن الجنود. وقد شاركت في جولات الفرقة الترفيهية. اما والدك، فكان ملتحقاً بالبحرية، وقد بدا وسيماً في بزته الرسمية. واذكر ان كثيراً من الشبان تزوجوا في ذلك الوقت. ولم يخامر بربارا الشك في حبّها لجون. وعاد والدك الى البحرية طبعاً، فلم يتسنّ لهما ان يلتقيا كثيراً لمدة طويلة. وكنت قد بلغت الستة من العمر عندئذ».
ثم صمتت اللايدي دافنبورت لتحرك خاتماً في اصبعها قائلة:
«وتملّك السخط بربارا عندما اكتشفت انها حامل. فاضطرت الى التخلي عن عملها، والالتحاق بعملها في ولتشاير. وبعد ان وضعت، لم تعد تطيق الانتظار، فعادت الى لندن مجدداً».
وتجهم محيا السيدة العجوز:
«آسفة يا عزيزتي ان اقول لك انك شكّلت عائقاً».

واحست سمانثا ان الدموع تملأ عينيها، الا انها كبتتها. وقالت وقد تمنّت معرفة المزيد، كما راودها الخوف على المصير المحتوم في آن واحد:

«ارجوك، تابعي حديثك».

«عندما سُرّح جون، وجد انك تقيمين معي في مسكن دافئ حيث تتولى مربّية الاهتمام بك ورعاية شؤونك بسبب وجود بربارا في لندن. ولم يزعجني ذلك في شيء لانك كنت طفلة مرحة أرى العالم كله من خلالها. لكن جون للأسف لم يوافقني على رأيي، بل اعتبر ان تربيتك من مهمّات بربارا، وهذا اعتبار بديهي خصوصاً اذا علمنا ان جون عمل قبل الحرب استاذاً في احدى مدارس لندن حيث اطلع على الآثار السلبية لتربية الاولاد اللذين انفصل ذووهم عن بعضهم. وعلى أي حال، فانه ابعدك عني واستأجر لنفسه شقّة في لندن. وبدا لبعض الوقت ان بربارا حافظت على علاقتها بجون وهو الشاب البهي الطلعة البارع والقوي. واكتفت بربارا طوال تلك الفترة باداء ادوار صغيرة، فيما اعتنت بك وبجون بقية الوقت. وتيقنت ان كل شيء سيسير على ما يرام بعد عودة جون وظهور علائم السعادة على بربارا. . .».

ثم تنهدت:

«آسفة يا عزيزتي. لكن، يجب ان اصارحك. لقد اتضح لجون ان زوجته اقامت علاقة سرية مع احد منتجي الافلام السينمائية رغم انه كان متزوجاً، وذلك لانه وعدها بأدوار مختلفة في افلامه».

صدمت سمانثا وتملكها الخوف. هل هذه أمها التي اسرعت الى لقائها؟

«ورفض جون بعد ذلك ان يتحدث الى بربارا. ومضى ليبيع كل ما وصلت اليه يداه، وسحب كل مدخراته من المصرف. ثم اختفى وقد اصطحبك معه وانت لا زلت في الرابعة من العمر. واتصل بنا محاميه بعد فترة من ميلانو ليخبرنا انه يعيش في ايطاليا، وانه لا يرغب في ان نحصل على عنوانه ولم يكن باستطاعتي ان افعل الا القليل دون مساعدة بربارا التي لا يظهر عليها الاهتمام. وبدأت والدتك تحصل على أدوار أطول وافضل. ومع مرور السنوات اصبحت نجمة معروفة. وهي الآن تختار دورها لانها ممثلة بارعة بغض النظر عن كل ذنوبها وعيوبها».

وصاحت سمانثا:

«لا يمكنني ان أصدّق ذلك. كيف يمكنها ان تفعل كل هذه الامور؟».

«ان بربارا امرأة فردية النزعة مستقلة بتفكيرها جوحة صمّمت على بلوغ اقصى مراتب النجاح. وقد تمّ لها ما ارادت. والى ذلك، فانها تحب الرجال الى اقصى الحدود. وهناك كثير من الرجال الذين يحيطون بها. وهي تشبه الاطفال في امور كثيرة. كما انها لا تريد ان تكبر، وتصر على البقاء طفلة الى الابد».

«ولكن، لا شك انها متقدمة في السن بعض الشيء. فانا في الثانية والعشرين من عمري».

«اجل. فهي ستبلغ الاربعين عندما تحتفل بعيد ميلادها القادم. لكني اتحدى اي شخص بان يعرف عمرها الصحيح».

فهتفت سمانثا مستغربة:

«الا تزالين مقيمة على حبها؟».

«اجل اني احبها. فهي ستظل ابنتي الوحيدة على الدوام. وقد توفي زوجي عندما كانت في السابعة من عمرها. والحقيقة اني الوم نفسي كلما فكرت بالاخطاء التي ارتكبتها في حياتها، وذلك لاني تساهلت معها كثيراً، ولم احرمها شيئاً».

حركت سمانثا رأسها:

«و. . . وهل تمّ طلاقها؟».

«اجل. لقد واجه محامي جون المحكمة بدلائل كثيرة احرستني وشلّت دفاعي. وانتهى كل شيء بينهما قبل ان تصبح معروفة. ولا يدري أحد اليوم اي شيء عن قصتها هذه».

وسكتت سمانثا لحظة. ثم قالت:

«الارجح اني لم اسمع بها ابداً. فما هو اسمها المسرحي، بربارا دافنبورت، ام بربارا كنغزلي؟».

«لا هذا ولا ذاك. اسمها الكامل هو بربارا هاريت دافنبورت. اما اسمها المسرحي او الفني فهو بربارا هاريت».

«ما زلت لا اعرف شيئاً عنها».

«لا بأس عليك. فانك عشت في عزلة، اليس كذلك؟ وأراهن ان جون

لم يكن ليخاطر ويسمح لك برؤيتها كثيراً».

وتملكت الرعشة سمانثا بالرغم منها، اذ ملأتها سيرة أمها اشمئزازاً وقرفاً. وادركت انه من الطبيعي ان تستطيع جدتها رؤية الاشياء بمنظار بربارا. اما هي، فتعتبر تصرف والدتها مشيناً ولا اخلاقياً. ويبدو ان بربارا لا تعير اهتماماً لأحد. ثم سألت:

«وهكذا، فانها لم تتزوج مرة ثانية؟».

هزت اللايدي دافنبورت رأسها:

«كلا. فهي لم تشعر برغبة الارتباط برجل واحد كلياً. الا اني اظنها بدأت تغيّر رأيها قليلاً الآن. فهناك الآن رجل. . . حسناً! هذا خبر يحتمل الانتظار».

واكفهر وجه اللايدي دافنبورت. ثم استقامت في جلستها لتمسك باحدى يدي سمانثا قائلة:

«هناك أمر آخر يجب ان تعرفيه يا عزيزتي».

اعترت الخشية سمانثا. فماذا بقي حتى تسمع؟ وسألت بحذر:

«وماذا هناك؟».

«ان بربارا ممثلة شهيرة جداً اليوم كما اخبرتك».

«اجل».

«ولذا يجب ان تظهر امام جمهورها كممثلة شابة وامرأة جذابة».

علا العبوس قسمات سمانثا لأنها لم تفهم قصد جدتها من هذا الحديث:

«تابعي حديثك. هل رفضت الاعتراف باني ابنتها؟».

ابتسمت السيدة العجوز متعبة وتنهدت:

«ان حذرك واضطرابك الفاجئين يحزناني. واني لأؤكد لك ان بربارا تريد الاعتراف بك ابنة لها».

بلعت سمانثا ريقها واستطردت:

«اذن، ما المشكلة؟».

«انك في الحادية والعشرين من عمرك يا عزيزتي. وهذه هي المشكلة. سيكتشف الجميع، ان هي اطلعتهم على عمرك الحقيقي، بانها اكبر بكثير مما ادعت».

«يا الهي!».

«حاولي ان تفهميني يا سمانثا العزيزة. لم يتصور أحد ان عمرها يزيد على الثانية او الثالثة والثلاثين».

«اذن. ما هو اقتراحك، او بالأحرى، اقتراح بربارا؟».

«انها ترجو ان توافقي على الادعاء بانك ما زلت في سن المراهقة. . .».

«انا مراهقة!».

«اجل. فما رأيك لو قلنا انك في السادسة او السابعة عشرة من عمرك؟».

اكفهرّت ملامح سمانثا، وظهر الغضب على سيمائها:

«لن يحصل هذا ابداً. كيف يمكنك ان تطلبي مني هذا بعد ان اساءت الي طوال هذه السنين؟ كلا. انني ارفض».

اطلقتّ اللايدي دافنبورت تنهيدة متعبة، ثم قالت بوهن:

«اخبرتها بانك لن تقبلي».

«حسناً! ولماذا أقبل؟ فانا لست مدينة لها بشيء! بأي شيء على الاطلاق».

«اشاطرك الرأي يا عزيزتي. الا انها وضعت هذه الشروط حتى تسمح لي بك هنا. وانت لم تسمعي كل شيء بعد. فانت ستقيمين معي في دافن، ولن تزوري المدينة الا نادراً. ولا حاجة بك ان تكوني مراهقة الا في هذه المناسبات. وبامكانك ان تعيشي على حقيقتك في دافن. فالقرية هادئة، ولا شيء يدفع احداً لاكتشاف هويتك الحقيقية اذا لم تكن هذه مشيئتك».

وامسكت يد سمانثا ثانية:

«وهل اطلب منك الكثير لنفسي؟ انا التي اقترحت حضورك لاني طالما تمنيت ان اعرفك. فانا سيدة عجوز اعيش بمفردي. وانه من دواعي غبطتي ان ترافقيني يا سمانثا. وهل لك في ايطاليا عزيز يصعب عليك مفارقته؟».

اجفلت سمانثا من كلماتها، اذ كان يخيل اليها انها لم تترك شيئاً مهماً يدعوها الى ايطاليا، ولم تتوقع حدوث مثل هذا الأمر. كانت على ثقة ان اهلها سيحبّونها، وكان همّها الوحيد خوفها من الاّ تحبهم. والآن، بعد ان عرفت الطرق السيئة والملتوية التي عاملتها بها امها طوال هذه السنين، ادهشها هذا العرض المفاجىء.

تأملت سمانثا جدتها بحنو، ورأت فيها سيدة محبة ورقيقة أياً تكن اخطاؤها وخطاياها. واقتنعت سمانثا ان حبها لجدتها سيتعاظم، فلدى كل منهما اشياء كثيرة تفوقها للأخرى. كانت تشعر بصلة حميمة تربطهما، وتمنت لبرهة لو لم تكن لها ام تعقّد الامور، لامكنها اذن ان تقيم مع جدتها سعيدة ومن دون مشاكل. وهنا طرحت عليها سؤالاً: «وماذا لو اصرت بربارا على رفضها؟ لماذا لا يمكنني ان اعيش معكِ في دالفن وننسى مشاريع بربارا وخططها؟».

«لقد أوصى زوجي هارولد بمسكن دالفن لبربارا. ولم يترك لي الا ما اعيش به على نحو مريح. وأمك تملك معظم التركة. وبمقدورها ان تجعلني احيا في شقاء مقيم اذا انا عصيت رغباتها. وبربارا كما اسلفت وقلت امرأة انانية فردية النزعة، واذا اغضبت، فانها ترتكب حماقات لا يتصورها العقل. ولا اجدني راغبة ان اثيرها واعاديها وانا في هذه السن المتقدمة».

خابت آمال سمانثا، واكتنفتها رغبة بالدفاع عن جدتها:

«ما هذا الذي تقولينه؟ انه مروع».

«حسناً. لقد شرحت لك الوضع على حقيقته».

«ولكن، اذا لم ترد الاعتراف بنوّتي وانا في الواحدة والعشرين، فلماذا تريد ان تعترف باني ابنتها في أي حال؟ من المؤكد ان بوسعي ان اكون قريبة او صديقة او اي شيء من هذا القبيل...».

هزت اللايدي دافنبورت كتفيها:

«هذه مشكلة بربارا، لا مشكلتي. لكني اعرف شيئاً واحداً، وهو ان بربارا تريدك مراهقة. فهل توافقين ام لا؟».

انتصبت سمانثا واقفة وقد ارقها الوضع. فالمشكلة في الحقيقة بسيطة للغاية، اما ان ترضى بمشاريع بربارا، واما ان تحزم امتعتها، اذا جاز التعبير، وترجع الى حيث اتت.

وادركت انه لو كانت معرفتها بانكلترا اوسع، لما اختارت الا الحل الثاني. الا ان ايطاليا كانت اكثر ترحيباً بها في حالتها الحاضرة.

وتبقى هناك مشكلة عملها. فهي مقتنعة اكثر من ذي قبل ان زواجها بينهو ليس هو الحل المنشود. صحيح انها اعجبت بمزاياه لكن ربما يعود ذلك الى نشأتهما معاً والى اتصالها المباشر.

ولا يمكن ان تنسى عقدة جدتها. اذ مهما حاولت التخلص من الشعور بان جدتها تحتاج اليها، فلن تنجح. اللايدي دافنبورت امرأة طاعنة في السن. أليس من الافضل لها ان توافق على مشاريع بربارا؟ وعندما لا يعود بالامكان ايذاء اللايدي دافنبورت تفجر في وجهها وتعاملها بما تستحق.

هل يحق لها ان تترك قريبتيها الوحيدتين الآن مع انهما عاملتاها بقسوة بالغة في الماضي؟ انهما بحاجة اليها الآن، ولو انهما عبرتا عن حاجتهما تلك بصورة خادعة. وهي لا تذكر ان احداً اعرب عن حاجته اليها منذ توفي والدها.

واستدارت نحو جدتها التي جلست تراقبها وهي تأمل خيراً. ثم خاطبتها السيدة العجوز بهدوء:

«انك لا زلت شابة. الا يمكنك تكريس بضعة اشهر، او بضع سنوات على الاكثر، من اجلي؟».

واخيراً علقت سمانثا:

«اشعر اني وسيلة للمتاجرة والدعاية. ولكن، اذا وافقت، اتظنين انه بامكاني الظهور بمظهر ابنة ست عشرة سنة؟».

اجابتها اللايدي دافنبورت مبتسمة:

«بكل سهولة. فانت تبدين الآن اكبر من ذلك. ولكن حياتك يا سمانثا خلت من الاضطرابات، وتميزت بالهدوء. ولا تلوح على وجهك اي من دلائل الارهاق والاجهاد الظاهرة في وجوه الشباب اليوم. والمراهقون في عصرنا ليسوا سوى شلة من الاولاد المزعجين والمضطربين. ولعلك ستستمتعين بمراهقتك الثانية. واعدك بالا تكون حياتك مملة ورتيبة».

وتساءلت سمانثا ما عسى ان يقول عنها والدها لو عرف. على اية حال، انه المسؤول بالدرجة الاولى عن عودتها الى امها. وتأكدت انه لم يكن ليقبل باي من هذه المشاريع لانه كان يبغض الخداع ويكرهه. غير ان عقلها شكك في هذا الرأي. الم يمارس والدها نفسه ضرباً من الخداع عندما جعلها تؤمن ان امها متوفاة وهي لا تزال تنبض بالحياة والحيوية؟ وفي نهاية المطاف، اعلنت:

«سأوافق الآن على الاقل. على اني لن التزم باي تصرف الا بعد ان اجرّب هذا القناع».

«كم انا سعيدة بك وممتنة لعطفك يا عزيزتي».

وبرق الدمع في عيني السيدة الهرمة، وسرّ سماننا انها وفرت السعادة لشخص واحد على الأقل. وقالت اللايدي دافنبورت:

«اما الآن، فبامكاننا ان نتناول التفاصيل».

بان الارتباك على سماننا:

«اي تفاصيل؟».

«يؤسفني ابلاغك ان بربارا عقدت زواجاً سرياً منذ سبع عشرة سنة اي حين كانت في السابعة عشرة من عمرها. وكنت انت حصيلة زواجها. على ان وجودك بقي سراً حتى تكبري بعيداً عن الأضواء والضوضاء المحيطة بابناء المشاهير».

وعبست سماننا وهي تحدق في جدتها باندهاش:

«صبراً. كيف استطاعت ان تقول ذلك وهي لا تعرف اني سأوافق؟».

لم تخف اللايدي دافنبورت عدم ارتياحها:

«لا اكتمك القول يا عزيزتي سماننا انها كانت تعول على قبولك لمشاريعها. فلا احد يرفض لها طلباً على الاطلاق».

امالت سماننا رأسها يمنة ويسرة وقالت:

«يا الهي. فانا اذن لست سوى لعبة تعمل بها بربارا هذه ما تشاء».

«ارجوك الا تقولي ذلك يا سماننا. دعينا نكمل. واؤكد لك انك لن تندمي على شيء».

لم تقتنع سماننا. غير انها لم تستطع التفوه بكلمة اعتراض واحدة وشعرت باشمئزاز شديد من المخطط بأكمله. ولا بدّ ان يكون هناك سبب. فبربارا، مما سمعته عنها حتى الآن، لا تفعل شيئاً دون سبب وجيه.

وهنا سألت جدتها:

«متى نذهب الى دافن؟».

اجابتها اللايدي دافنبورت وهي تتأملها:

«ليس قبل أسبوع أو نحوه على ما أظن. فبربارا تريد ان تقدمك الى اصدقائها. ولذلك رتبت بعض الحفلات ومآدب العشاء. وعندما تذهب الى دافن لا يعود ثمة مبرر لقلقك واضطرابك لانك لن تعودي الى لندن قبل مدة طويلة».

«فهمت!».

عضت سماننا شفتها. مآدب عشاء، حفلات! وتعود ابنة ست عشرة سنة مرة أخرى!

٣- يوم لا ينسى

استيقظت سماننا في صباح اليوم التالي لتجد نفسها في السرير الكبير بين ملاءات ناعمة ولحاف حريري. وظلت تفكر لحظة أين هي، الى ان استرجعت ذكرياتها.. كانت في انكلترا، وفي لندن بالتحديد حيث تقيم مع جدتها، وهي تتوقع ان تلتقي بأمها اليوم للمرة الاولى، وبعد سبع عشرة سنة.

وهنا انقلبت على وجهها لتدفن رأسها في الوسادة. فعقلها لم يستسغ اللعبة اليوم كما استساغها بالامس، حين قضت السهرة بكاملها مع جدتها التي ابلغتها ان بربارا مرتبطة بموعد مهم، ولذلك لن تتمكن من الحضور والقاء التحية على ابنتها الا غداً، اي اليوم. واعتبرت سماننا الهائجة والفضولية هذا القول كافياً لاظهار أمها على حقيقتها.. ألم تعرها والدتها اي اهتمام على الاطلاق؟

واعلنت السيدة دافنبورت انها ستذهبان اليوم لابتياع الملابس، فمن الواجب ان تبرز سماننا في ملابس لائقة. كما ينبغي ان يغسل شعرها ويجفف. ورُوعت سماننا فكرة زيارة دار فخمة لتزيين الشعر، وهي التي لم يسبق ان رأت محتويات مثل هذا المكان. فسألت عن السبب الذي يمنعها من تصفيف شعرها بنفسها كما كانت تفعل دائماً. وما كان من اللايدي دافنبورت الا ان ابتسمت:

«يجب ان تدركي الآن يا عزيزتي انك شابة غنية نسبياً. لا تصففين شعرك بنفسك وانما تزورين مزيّن الشعر بانتظام لن تكوني مشعثة الشعر ومغضنة الملابس يوماً من الأيام».

وظلت سمانثا على اصرارها بان لا مبرر لهذه المصاريف، غير انها امتنعت عن الادلاء بأي تعليق آخر.

وغادرت فراشها وهي تنظر الى ساعتها التي اشارت الى الثامنة والنصف. ولو انها ظلت في بلدتها، لكانت قد نهضت الآن وبدأت بتناول فطورها. «بلدتها!». علت ثغرها ابتسامة وهي تتساءل: هل يمكن ان تألف اعتبار لندن بلدتها؟

ولما قرعت الخادمة الباب، ودخلت بصينية الافطار، كانت سمانثا قد فرغت لتوها من الاستحمام وارتداء ملابسها. فصاحت الخادمة:

«آه! ارى انك نهضت يا آنستي».

اضطربت سمانثا:

«اجل. وما الغريب في الامر؟».

ابتسمت الخادمة:

«لا شيء. فليباركك الله. ظننتك متعبة بعد رحلتك الطويلة نهار امس».

«انني بخير. هذا فطور كبير».

«كلا. انه يقتصر على بعض اللحم والبيض المقلي والخبز المحمص».

ردت سمانثا على ابتسامة الخادمة بابتسامة مشابهة:

«الحقيقة اني اعتدت على تناول بعض الخبز المدور والزبدة. لقد آ... اخبروني كثيراً عن هذه الوجبة الانكليزية».

وبلعت ريقها لانها كادت تقول ان أباها اخبرها. ولما لم تلاحظ الخادمة اي تغيّر في ملامح سمانثا، اجابتها ببساطة:

«حسناً، كلي ما استطعت. لقد طلبت مني اللايدي دافنبورت ان اخبرك بأنها ستنهض وتستعد لبدء رحلتك الشرائية عند الساعة العاشرة».

«اشكرك».

وخرجت اللايدي دافنبورت من غرفتها عند الساعة العاشرة تماماً وقد بانت ملامح الاناقة والفخامة على قدّها الصغير، فحسدتها سمانثا على ثقتها بنفسها وهدوئها. ولما سارت بجانبها، ألفت نفسها فارعة الطول ضخمة الجثة تعوزها اللباقة. فطلبت اليها اللايدي دافنبورت وقد تأملتها بدقة: «لا تترهلي في مشيتك يا عزيزتي. صحيح انك طويلة القامة، لكن

يجب ان تفخري بهذه الميزة».

اجابتها سمانثا بطاعة وهي تبتسم:

«اجل يا جدتي. لا شك انك قاسية عندما تأمرين، أليس كذلك؟».

فقهقهت اللايدي دافنبورت:

«هذا يعتمد على مزاجي. والآن، هل يمكننا ان ننطلق؟ فبارنز ينتظرنا».

وقفت سيارة الرولز تنتظرهما في باحة الفندق. وساعدت سمانثا جدتها بالصعود اليها، ثم جلست بقربها. واغلق بارنز الباب، ثم دار حول السيارة قبل ان يدخل هو أيضاً. ولما انطلقت السيارة، شعرت سمانثا ببعض الحماسة ونظرت بفرح وترقّب من نافذة السيارة وهي لا تطيق ان يضيع عليها مشهد واحد.

واجتازوا قسماً من لندن. عندئذ أمرت اللايدي دافنبورت بارنز بان يدور حول سيرك بيكاديلي لتتمكن سمانثا من مشاهدة تمثال العاطفة. وقالت لحفيدتها:

«عليك ان تزوري هذه الاماكن وتشاهديها بدقة ذات يوم. هل تعرفين الكثير عن لندن؟».

ردت سمانثا:

«لدي بعض المعلومات عن برج لندن وقصر بكنغهام. والحقيقة ان والدي اخبرني عنها الكثير، وكان يحب المتاحف ومعارض الفنون. وقد اصطحبني مرة الى روما حيث زرنا الكولوسيوم في الفاتيكان».

فابتسمت لها جدتها:

«وهل اعجبت بهذا المكان، الذي يعتبر مخزناً للفنون في العالم؟».

«اجل. لكني أرغب باكتشاف لندن على حقيقتها. وهناك أمور كثيرة أرغب القيام بها».

«حسناً. لديك المتسع من الوقت».

«اعرف ذلك. ولذا فانا ممتنة لك. ولكم تقت ان أرى هذه البلاد. لكن الظروف كانت تصوّر لي هذه الأمور بصورة مختلفة».

واكتشفت سمانثا أهمية امتلاك المال عندما دخلت متجراً ترتاده اللايدي دافنبورت في شارع بوند. فلقد بدا المتجر من الخارج عادياً الى حد بعيد،

الا ان عالماً آخر رحباً انكشف لها في الداخل.

ومع انه يحمل اسماً تجارياً بسيطاً «ايلان»، الا انه من اغلى وافخم متاجر الالبسة في لندن. وما ان تخطت سمانثا عتبة بابه، حتى غرقت قدماها في سجادة ذات لون بنفسجي فاه، وبهرها اللون الليلكي الهادىء في قطع الاثاث والمعلقات. وادخلتها ايلان بنفسها الى بهو فسيح، وهي سيدة فرنسية متقدمة في السن كاد التهاب المفاصل يشل يديها.

وطُلب من سمانثا ان تخلع ملابسها الخارجية. ثم قيس طولها، ووزنت. ولشد ما احرجت سمانثا وانزعجت لانها لم تتعود خلع ملابسها امام احد على الاطلاق. وتمنت لو تنتهي العملية بسرعة. واطرت ايلان تناسق جسم الفتاة:

«ان لحفيدتك يا لايدي دافنبورت جسماً رائعاً، فهي مديدة القامة ونحيلة، غير انها مستديرة الجسم لا تنتأ عظامها بشكل زوايا».

فسرت اللايدي دافنبورت، واجابت مبتسمة:

«هذا بالضبط ما خطر لي. واظن ان كثيراً من الملابس تناسبها، اليس كذلك؟».

«طبعاً. ومجموعة ازيائنا الجديدة تناسبها كثيراً لانها معدّة للشابات. الم تقولي انها تبلغ السادسة عشرة من عمرها؟».

«بلى، بالضبط».

لم يبد الانزعاج على اللايدي دافنبورت، في حين علت حمرة شديدة وجه سمانثا.

وقضت السيدتان في المتجر اكثر من ساعتين. ولما خرجتا، احست سمانثا انها لن تستعيد طهرها ثانية بعد ان استبدلت ملابسها القطنية الداخلية باخرى من النايلون الصافي.

وارتدت عند خروجها بزة كورتيل برتقالية اللون تألفت من تنّورة دقيقة الثنيات وبلوزة قصيرة الياقة تركت حلقها عارياً. اما ملابسها، فتركت في البهو وهي لا تصلح الا للرمي في صناديق القمامة على ما يبدو.

وكان الفرق في مظهرها مذهلاً الى حد ادهشها عندما تأملت نفسها.

وبعد ان جلست سمانثا في مؤخر السيارة بجانب جدتها، التي تلقت مساعدة كبيرة لتتمكن من الصعود، قالت اللايدي دافنبورت:

«اما الآن، فعلينا الاهتمام بشعرك».

فاستفسرت سمانثا وهي تمرر يدها على شعرها الذي حاكى الحرير نعومة:

«وماذا تنوين ان تفعلي بشعري؟».

ابتسمت اللايدي دافنبورت:

«تغيير بسيط يا عزيزتي. فلا تضطربي لان المراهقات يطلن شعورهن في هذه الايام. وشعرك خشن عند اطرافه. لكن رافاييل سيجعله اكثر عصرية بحيث يزركش اطرافه ويعطيه لوناً غنياً يلفت الانتباه الى هاتين العينين الجميلتين».

علت الحمرة وجه سمانثا من جديد لانها لم تسمع مثل هذه المجاملات من قبل.

لم يكن محل رافاييل لتزيين الشعر بعيداً عن متجر الالبسة. وقد تركت اللايدي دافنبورت سمانثا هناك بعد ان دخلت بنفسها وطلبت ان يعتني رافاييل شخصياً بحفيدتها، مؤكدة انه يعرف ما تحتاجه بالضبط. وفيما خضعت سمانثا لعملية غسل شعرها وتجفيفه وتصفيفه تلقّت اظافرها طبقة من طلاء الاظافر، كما دهن جلدها بكريمات مختلفة لفحصه. واخيراً تولت مساعدة رافاييل الماهرة تزيينها. ولما عادت اللايدي دافنبورت لاصطحاب حفيدتها، صفقت فرحاً وهي تصيح:

«بديع يا عزيزتي. انك تبدين غاية في الحسن».

لم تقتنع سمانثا بقول جدتها، بل اعتبرت نفسها اشبه بحقل تجارب. الا انها اضطرت للتجاوب مع جدتها لان الاخيرة كانت تستمد سعادة من عملها هذا.

عادت السيدتان الى الفندق لتناول الغداء، ولفتت سمانثا انظار رواد المطعم، فالتفتت اللايدي دافنبورت مبتسمة بشيء من التعب:

«لعله من الخير ان يعتبرك الناس ابنة ست عشرة سنة. ولا اخال بربارا توقعت ان تكوني على هذا القدر من الجمال. اما من حيث مظهرك، فانك تشبهين بربارا. الا انك أطول منها قامة.وعيناك تشبهان عيني جودي».

وركزت سمانثا نظرها على سمك السلمون المشوي الموضوع في طبقها وسألت جدتها:

«متى التقي أمي؟».
تأملت اللايدي دافنبورت ساعتها:
«اذكر ان بربارا اكدت بانها ستتصل بعد ظهر اليوم. وانها نادراً ما تنهض قبل وقت الغداء عندما لا تكون مرتبطة بمواعيد عمل. وهي لا تعمل الآن، بل تستريح بين مسرحيتين انتهت اولاهما منذ أمد قريب بعد ان عرضت ستة اشهر على مسرح برودواي. وستستمر اجازتها شهراً كاملاً قبل ان تشارك في تمارين مسرحية جديدة يفترض ان يبدأ عرضها بعد ستة أسابيع في الطرف الغربي من المدينة».
اطرقت سمانثا وقالت:
«فهمت. ولكن، متى تتوقع ان تبدأ بعرضي أمام الجمهور؟».
«ارجوك يا عزيزتي الا تنظري الى الامر هكذا. اما عن تعارفك على اصدقاء أمك، فلست ادري شيئاً. وربما تم مساء الليلة، رغم انني اشك في ذلك لعلمي بانها تقيم حفلة كوكتيل ليلة غد قبل العشاء. ولعلك حينئذ تبدأين بايفاء جزء من دينك».
«ولماذا تقيمين وحدك وليس في شقتها عندما تحضرين الى لندن؟».
«الحقيقة يا عزيزتي ان نمط عيش بربارا لا يناسبني. صحيح انها تنهض من فراشها صباحاً، الا انها تتأخر في الايواء اليه ليلاً، ونادراً ما تدخل سريرها قبل صياح الديك».
وتساءلت سمانثا، وهي المعتادة على النوم والنهوض باكراً، اذا كان مطلوباً منها مجاراة مواعيد أمها.
وبعد فراغهما من الغداء، صعدتا الى جناح اللايدي دافنبورت حيث كانت خادمتها اميلي قد فضّت كل الملابس التي وصلت من متجر ايلان. لقد عملت اميلي مع اللايدي دافنبورت منذ ما يزيد على عشرين عاماً. وحاولت سمانثا ان تفهم ردة فعل الخادمة على هذا الخداع المتعمد. فالخادمة لا بد تعرف سمانثا منذ كانت طفلة، وتعلم بالتالي عمرها الحقيقي. الا ان اميلي احتفظت برأيها لنفسها.
ذهبت اللايدي دافنبورت الى غرفتها لتستريح قرابة ساعة، بينما تركت سمانثا بمفردها. فاشعلت سيكارة، وجلست على الاريكة تقرأ بعض المجلات التي اعطتها اياها اميلي. واكتنفها الاضطراب لانها لم تعرف ان

كانت ترغب في حضور أمها ام لا. فقد اشمأزت منها قليلاً، ولم تشأ ان يزداد سخطها عليها عند لقائها. ولذلك آملت ان تكون بربارا قد لانت مع تقدمها في السن. الا ان ما سمعته من جدتها يؤكد ان امنيتها لم تكن لتتحقق. وفتح الباب وراء سمانثا، فاستدارت وهي تتوقع ان تشاهد اميلي. ولكنها عوض ذلك لمحت سيدة حسناء ذات شعر اشقر قصير وعينين زرقاوين ترتدي بزة من المخمل القرمزي اللون تلتصق بجسمها. وبدت غاية في الغرابة وهي تتكئ على الباب.
وادركت سمانثا ان هذه أمها لا محالة. فانتصبت واقفة بصورة آلية. وبعد ان عرفت سمانثا بربارا معرفة افضل، فهمت ان والدتها رتبت دخولها عليها بهذه الطريقة. كانت تعرف كم ستبدو جميلة وهي تقف بجانب الباب. لذلك عزمت ان تراها ابنتها في هذه الصورة للمرة الاولى. كان يطوق عنقها عقد برّاق، فيما تلألأت حبات الماس في القرط المعلق من اذنيها. وتكلمت متمهلة:
«واذن، فانت سمانثا!».
ارتجفت سمانثا. فالموعد قد تمّ. وقد اخرسها اللقاء! تمكنت من النطق بارتعاش:
«أجل. وانت... هل انت أمي؟».
«ان ذلك واضح».
واستقامت قامة بربارا التي عبرت الغرفة بعدم اكتراث. وقالت:
«من المؤكد ان امي صنعت بك العجائب. فانت تبدين غاية... في الجاذبية».
واحست سمانثا بالحياة تدب في جسمها من جديد اذ عاودها الامتعاض الذي عرفته من قبل، بعد سماعها ملاحظة أمها الساخرة.
ووقفت بربارا على بعد خطوات منها قائلة:
«لا شك انك تعذرينني اذا لم اقبّلك، اليس كذلك؟ فانا لست معتادة على تقبيل النساء. كما اننا لم نتعامل طويلاً مع بعضنا بحيث تنشأ بيننا صداقة ومودة. ولا يمكن ان يكون شعورنا تجاه بعضنا مثل شعور امّ وابنة اخريين تجاه بعضهما. واني واثقة ان جون مسؤول عن كل الافكار التي تكوّنت لديك عني».

فعقبت سمانثا ببرودة:

«لقد اخبرني انك ميتة».

ابتسمت بربارا اذ لم يزعجها قول ابنتها البتة:

«هل قال ذلك حقاً؟ من المؤكد انه لم يحسب حساباً للأمر، اليس كذلك؟. ألم يخش حدوث الشيء نفسه؟».

فاجابتها سمانثا بحدة:

«لم يكن هناك مثل هذا الخوف ابداً».

ابتسمت بربارا ثانية ابتسامة عريضة:

«صحيح! وانك لسيدة مجربة تستطيع اصدار الاحكام بسهولة، اليس كذلك؟».

«لا افهم قصدك. لكني اعتقد انك تصرفت بطريقة مشينة».

تلفظت سمانثا بهذه الكلمات قبل ان تستطيع منع نفسها...

«هل تعتقدين ذلك فعلاً، ألم يفتنك أي رجل تتصورين انه بعيد عن متناول يدك؟».

«كلا».

فقالت بربارا بنبرة طغى عليها الملل:

«طبعاً. فمن الصعب ان تجدي رجلاً لائقاً في قرية تقع آخر العالم».

ردّت سمانثا غاضبة:

«لقد عشنا في قرية جميلة. وكنا سعداء مع بعضنا. ولم اشعر بحاجة الى أي رجل آخر».

«عظيم!».

وادارت بربارا ظهرها، فتنبهت سمانثا الى ميزة في أمها كانت مألوفة لديها. وبدا من الغريب الا تكونا قد تقابلتا من قبل. ومع ذلك... فان فيها ميزة... وهنا تكلمت بربارا:

«اظن ان والدي قد شرحت لك الوضع. فهل توافقين؟».

اجابتها سمانثا:

«ذلك واضح، والا لما كنت هنا، اليس كذلك؟ ألم يكن من المفروض ان اعود من حيث أتيت ان رفضت طلبك؟».

فاطلقت بربارا ضحكة عذبة:

«لا تكرهيني الى هذا الحد يا عزيزتي. فانا أمك. ولا أريد أن يتصور أحد اننا لا نحب بعضنا».

فتناولت سمانثا سيكارة من العلبة الموضوعة على الطاولة واشعلتها بشرود. سألتها بربارا وهي تتأملها:

«هل تدخنين كثيراً؟».

«لماذا؟».

«حسناً يا عزيزتي. لن يكون بامكانك الاكثار من التدخين في العلن».

تجهمت قسمات سمانثا، واجابت بفظاظة:

«اني لا ادخن كثيراً على أية حال، وافكر جدياً بالانقطاع عن التدخين».

«لا ينبغي لي التدخل في نمط حياتك الآن يا عزيزتي. ولكن فكري بالمال الذي انفق عليك حتى الآن. من الواضح ان والدي اصطحبتك لشراء بعض الملابس، اليس كذلك؟ فهذه البزة تبدو من صنع ايلان».

اطبقت سمانثا شفتيها بتمرد. فلا ريب ان امها مصيبة، واللايدي دافنبورت تستحق بعض التقدير. لولاها لما وافقت سمانثا على هذا المشروع من البداية.

قالت وهي تحدق في أمها غاضبة:

«هو كذلك».

وابتسمت بربارا:

«ظننت هذا. والآن، استريحي يا عزيزتي. فانا لم ارتكب جريمة كما تعرفين. والأرجح ان جون عرف في وحدته سعادة اعظم مما لو كان معي. نحن لم نتفق تماماً كما لا يمتزج الزيت بالماء».

وتأملت سمانثا في قسوة بربارا التي تعودت الصراحة المطلقة. واذا كانت بربارا تقتنع بقسوتها، فانها تمارس فن خداع النفس ايضاً، ولعلها فعلت ذلك طوال الوقت. أم لعلها فقدت ضميرها؟ بدا ذلك اقرب الى الواقع وجلست بربارا على كرسي واطىء، ثم خلعت قفازيها قائلة:

«اريد ان تناديني بربارا. وانا متأكدة انك ستجدين هذا ملائماً لذوقك. فمن الصعوبة بمكان ان تناديني أمي بعد كل هذا الذي حدث، اليس كذلك؟».

ردّت سمانثا عليها بشيء من الاحتقار:
«الحقيقة ان ما تقولينه صحيح».
«حسناً. ولكن، ماذا كنت تنادين جون؟».
«جون».
افتر ثغر بربارا عن ابتسامة:
«يا للمتعة. لا بد انك من الاولاد القليلين الذين ينادون والديهم باسمائهم الاولى».
اخذت سمانثا مجّة طويلة من سيكارتها، واتجهت نحو النافذة. اما بربارا، فتفرست فيها بعينين ضيقتين. خالفت توقعاتها اذ كانت اجمل بكثير مما توقعت. واضاف طول قامتها مزية الى مزاياها الكثيرة.
الا ان بربارا كانت مقتنعة بان معظم الرجال يفضلون امرأة صغيرة القد دقيقة الجسم انيقة المظهر مثلها، اذ لا يمكن لسمانثا ان تكون لعوباً ومرحة.
غير ان شعرها كان مزيجاً فتّاناً من بريق الفضة ولمعان الذهب. وتمنّت بربارا لو ان شعرها هي يحتفظ بمظهره هذا من دون اللجوء الى عمليات الصباغ العديدة للتخلص من بعض الشيب.
اما سمانثا، فتساءلت من ناحيتها عن امكان استمرارها في تحمّل هذا الشجار المتواصل. ولم تستطع ان تفهم الا بصورة جزئية سبب يأس بربارا وحزنها، اذ بدت شابة رغم انها قاربت الاربعين. ولو رحبت والدتها بمقدمها كما كانت تتوقع، لسرت بتنفيذ مشروعها... الا انها بعد ان عرفت ماضيها، الذي دفع والدها ليقيم في المنفى طوعاً، اختلف شعورها كلياً. والآن، وبعد ان واجهت هذه المرأة الباردة التي تحسب كل خطوة تخطوها، والتي تعجز عن الاحساس بحنوّ الام، بدا لها العالم مكاناً مليئاً بالعدوان والكراهية. وادركت ان احلام طفولتها انفجرت امام عينيها في اقل من أربع وعشرين ساعة، تماماً كما تفرقع البالونات وتختفي. وها هي تشعر انها قد تقدّمت في السن وازدادت نضجاً وحذراً.
ولشد ما ارتاحت عندما خرجت السيدة العجوز من غرفتها بعد بضع دقائق. وتوقفت الجدة فجأة بجانب ابنتها وهي تهتف:
«بربارا! ارى انك حضرت أبكر مما توقعت».
«أجل. لم يكن بوسعي ان انتظر مدة أطول حتى التقي بابنتي الجذابة».

فادارت سمانثا ظهرها لأمها.
وعضت اللايدي دافنبورت على شفتها، فيما تفحصتهما معاً.
لم يكن الجو المتوتر مرضياً، وخمنت ما قبل حتى تبدو سمانثا حذرة ومكتئبة هكذا. ثم خاطبت ابنتها:
«حسناً. الا تظنين ان ابنتك جميلة فعلاً؟».
«هذا صحيح. والحقيقة انها فاجأتني من عدة نواحٍ».
واعلنت سمانثا فجأة:
«اعتقد... اعتقد انني سأستحم. عسى الا يزعجك ذلك يا جدتي؟».
اخفت اللايدي دافنبورت اضطرابها فيما ردت قائلة:
«بالطبع كلا يا عزيزتي. امضي الى عملك».
واندفعت سمانثا خارجة من الغرفة دون ان تلقي نظرة واحدة وراءها.
وتطلعت اللايدي دافنبورت الى ابنتها بعد ان اغلق الباب وراء حفيدتها:
«ماذا قلت حتى ازعجت الفتاة؟».
اطلقت بربارا ضحكتها الرقيقة:
«لم نلتق الا منذ دقائق يا امي. فماذا يمكن ان اكون قلت لها؟».
فاجابتها السيدة العجوز وهي تلقي نفسها بثقل على الكرسي:
«استطيع القول من معرفتي بك ان بضع دقائق عندك تساوي الحياة بكاملها».
فعلقت بربارا ببرودة:
«انك تبالغين كعادتك. والآن، اصدقيني القول. هل استغرقك اقناعها وقتاً طويلاً؟».
فعبست اللايدي دافنبورت:
«اجل. لقد تعبت كثيراً في اقناعها. انها فتاة جذابة. هل ترغبين انت بالتظاهر انك فتاة مرة أخرى، وتضحين على نفسك غنى حياتك وشبابك؟».
اعترفت بربارا ببطء:
«كلا».
وتناولت سيكارة أخرى:

«الا انه لا مناص من ذلك الآن».

فابدت أمها ملاحظة ملؤها المرارة:

«طالما لم يلحق الاذى بربارا هاريت».

فابتسمت بربارا لأمها ثانية:

«تعلمين يا حبيبتي انه لو لحق الاذى بي، فانه سيلحق بك ايضاً في المدى البعيد. والحقيقة اني فخورة بنفسي. بهذه الطريقة اقتل عصفورين بحجر واحد».

فسألتها امها بحنق:

«هل ينبغي ان تخاطبيني بالأمثال؟ على اني آمل ان تكوني محقة. فانا اخشى كثيراً اذا شاع الخبر...».

القت بربارا بنفسها فوق احد المقاعد:

«اطمئني. فكل شيء سيكون على ما يرام. وانك سترين».

كانت بربارا قد ذهبت عندما عادت سمانثا الى البهو. فخالجها شعور بالارتياح لانها تطمئن الى جدتها، في حين تملؤها بربارا غيظاً وشكاً. غير انه توجب على اللايدي دافنبورت ان تطلعها على بعض المعلومات:

«ستقيم بربارا حفلة الكوكتيل غداً مساء. ونحن لن نراها الليلة لانها مرتبطة... بموعد...».

فسألت سمانثا بجفاء:

«مع ذلك الرجل الذي تورطت معه في علاقة حب؟».

«يمكنك ان تقولي ذلك يا عزيزتي شريطة الا تكوني قاسية. فنحن سنسهر معاً. ولذلك قررت الحصول على بطاقات لحضور مسرحية. ثم نمضي بقية السهرة في المدينة. الا يروق لك ذلك؟».

تغيرت ملامح سمانثا وصاحت:

«آه، بلى. هذا رائع. اي مسرحية سنحضر؟».

وقر رأيهما اخيراً على مسرحية كانت تعرض منذ شهرين، وتمكنتا من حجز مقعدين امامين بواسطة نفوذ اللايدي دافنبورت.

وارتدت سمانثا احد اثوابها الجديدة، وهو طويل مصمم على شكل قفطان يسبغ عليها مظهراً من مظاهر القرون الوسطى. واعارتها اللايدي دافنبورت وشاحاً من الفرو تغطي به ذراعيها. ثم ابتسمت لها بحنو قائلة:

«انك تبدين رائعة يا عزيزتي. آه يا سمانثا!! سنقضي وقتاً ممتعاً معاً».

احمرت وجنتا سمانثا حياء وعقبت برقة:

«افعل هذا كله من اجلك. ومن المؤكد ان لأيامنا قيمة كبيرة اذ رسم لقائي بك هدفاً جديداً لحياتي».

ووجدت سمانثا نفسها اثناء عرض المسرحية تتذكر باتريك مالوري الذي التقته بالامس. فلقد حدثت أمور كثيرة جعلتها تنساه، الا انها استرجعت لطفه تجاهها... وتساءلت اذا كان من الممكن ان تلتقيه ثانية. غير انها استبعدت حدوث مثل هذا الامر، لأنها لن تطيل المكوث اذا سارت الامور حسب ما تريد جدتها، وستنتقل معها الى دافن عما قريب.

ضغطت سمانثا على ذراع جدتها وهمست بلطف:

«كل هذه الامور جديدة بالنسبة الي. ولا زلت حتى الآن اشعر بصعوبة قبولي لكل ما حدث».

قربت اللايدي دافنبورت على يدها موافقة:

«علينا ان نعوض كثيراً من الوقت الذي ضاع منا. فهلا تمتعت حقاً بما حولك؟».

ردت سمانثا بصدق قبل ان تركز اهتمامها على الممثلين المتحركين فوق خشبة المسرح، وتطرد باتريك مالوري من رأسها:

«الى اقصى الحدود».

وانهت السيدتان امسيتهما بتناول العشاء في مطعم صغير منعزل. ثم قفلتا عائدتين الى الفندق عند منتصف الليل. وبدا الارهاق على الجدة، فاسعفتها سمانثا حتى بلغتا جناحها حيث قالت اللايدي دافنبورت بتعب:

«اتصور اني سآخذ قسطاً من الراحة في الصباح. فاذا اردت الخروج يا سمانثا قبل ان انهض، فافعلي ذلك شريطة الا تضيعي».

«طبعاً يا جدتي. لقد كانت السهرة رائعة. واني اشكرك جزيل الشكر».

وآوت سمانثا الى فراشها. الا انها لم تنم، بل اصابها الارق ساعات طويلة اذ اثارت السهرة افكارها بحيث حرمتها الرقاد. ولم يغمض لها جفن قبل الرابعة صباحاً. ولما جلبت ايميلي فطورها عند الساعة التاسعة، احست وكأنها لم تنم ابداً. فقد اختلط تقييمها للاحداث التي مرت عليها، وغلبها التفكير والخوف من حفلة بربارا وممن سيحضرونها.

وبعد الفطور استفسرت من امي عن صحة جدتها، ثم ارتدت بزة قصيرة من جلد الغنم وغادرت الفندق. ولفحها في الشارع هواء بارد فيما هبّت الرياح بقوة، بينما الشمس تحاول اختراق السحاب. وسعدت سمانثا بحريتها، فيما زررت معطفها، وانطلقت سيراً على الاقدام باتجاه ساحة ترافلغار.

كان المكان مثيراً. وامكنها وهي راجلة ان ترى عدداً اكبر من المشاهد مما هي في السيارة. ثم وقفت لتراقب النافورات، وتبتسم لتماثيل الأسود قبل ان تستأنف سيرها نحو قنطرة «الاميرالية».

امتدت الرقعة المكسوة بالاعشاب والاشجار امامها، فيما لاحظت منتزهاً عن يسارها. فقررت اجتيازه باتجاه قصر بكنغهام الملكي. ومع ان الوقت كان مبكراً، فان سمانثا لاحظت زحمة السير. وذكرها هدوء المتنزه بالسكينة التي عرفتها في بيروزيو.

وسمعت صوتاً يناديها وهي في طريقها لتستقل المصعد في الفندق. فحولت وجهها نحو مصدر الصوت، وكان صوت رجل، وهي لا تعرف رجلاً في انكلترا على ما تعلم.

تقدم منها رجل متوسط القامة ممتلىء البنية تقريباً. وكان الشيب قد غزا بعضاً من شعره الاشقر. وافترضت سمانثا انه يناهز الاربعين. فخاطبته بارتباك:

«اجل. هل بوسعي مساعدتك؟».

«الست انت ابنة بربارا هاريت؟».

«صحيح. ولكن، من انت؟ ولماذا تكلمني؟».

ابتسم الرجل. وتحولت ملامحه الصلبة رقيقة ولطيفة بعض الشيء:

«اسمي مارتن برايور. وانا... انا احد اصدقاء والدتك».

«صحيح؟ ولكن، كيف عرفت اني ابنتها؟».

اجابها الرجل وهو يلاحظ بعينين ثاقبتين دهشة سمانثا:

«انك تشبهينها كثيراً. هل ترغبين في تناول كأس من الشاي؟».

وعاد الرجل يبتسم بفتور لسمانثا المضطربة. ثم قال:

«حسناً. ولكن، ما رأيك ان نشرب القهوة معاً في الردهة الكبيرة سيما وأن الساعة قاربت الثانية عشرة ظهراً؟ فانا على يقين ان باستطاعتي اجراء

الترتيبات اللازمة».

فعقبت سمانثا ببرودة:

«أنا واثقة من قدرتك. على اني لست بحاجة الى اي مرطبات الآن. فشكراً لك... وأرجو ان تعذرني».

«انتظري لحظة. لقد انتظرت ما يزيد عن نصف ساعة حتى اراك».

فعبست سمانثا:

«صحيح؟ وهل اتصلت بجدتي لتعلمها بوجودك هنا؟».

«الحقيقة، كلا. فحين وصلت طلبت التحدث اليك. وعلمت انك غادرت الفندق. فقررت انتظارك».

رمته سمانثا بنظرة متشككة:

«من المؤكد انك تستطيع ان تقول لي اي شيء هنا في هذه الردهة».

«حسناً. حسناً. دعينا نجلس».

ولما جلسا، قال لها:

«احسب ان من واجبي ان اخبرك باني مراسل صحفي».

تقلصت عضلات سمانثا وهي تصيح:

«هذا من واجبك فعلاً».

«لا تغضبي مني يا عزيزتي. فانا لا أريد منك الا حديثاً تتناولين فيه المدة التي قضيتها في ايطاليا، ومدى معرفتك بوالدتك...».

وانتصبت سمانثا واقفة وقد تملكها الغضب. ثم خاطبته بجفاء:

«لا انوي التحدث عن شؤوني الخاصة معك او مع أي شخص آخر. والآن، أرجو ان تعذرني فلدي كثير من الاعمال».

وابتعدت سمانثا بينما بقي مارتن برايور يراقبها من مقعده. اذن، هذه ابنة بربارا البالغة من العمر سبع عشرة سنة، ام هل قالت بربارا انها في السادسة عشرة؟ على اي حال، انها مراهقة رائعة الجاش. وقف مبتسماً ثم اتجه نحو الباب حيث حيّاه الخادم.

ووصلت سمانثا الى جناح جدتها. وعندما فتحت الباب، وجدت اللايدي دافنبورت جالسة الى المكتب تخط رسالة. فهتفت سمانثا:

«جدتي! هل تعرفين رجلاً يدعى مارتن برايور؟».

استدارت اللايدي دافنبورت نحوها وقد بان الاضطراب على وجهها:

«اجل، اعرفه يا ابنتي. لماذا تسألين عنه؟».

«لأنه كمن لي في الردهة المقابلة لمكتب الاستعلامات وبدأ يوجه اليّ اسئلة عني وعن بربارا».

فابتسمت اللايدي دافنبورت بتعب:

«لا شك ان مارتن برايور معتدّ بنفسه لانه من اشد الرجال نفوذاً في شارع الصحافة، وهو يكتب عمود الاشاعات والفضائح عن المشاهير في جريدة الامباسادور. وركنه محجة لكل من يرغب ان يشهّر اسمه بين العامة. والجميع يقرأونه دون استثناء».

وعادت تركز على المكتب بحيث لا يمكن لسمانثا ان ترى وجهها. ثم اضافت:

«وركنه يسلط الاضواء على اكبر فضيحة في عالم السينما او المسرح».

«فهمت. انه احد الذين يستطيعون كشف فضيحة بربارا بالقول ان ابنتها المراهقة تبلغ الحادية والعشرين من العمر».

فحانت التفاتة محتارة من اللايدي دافنبورت نحو حفيدتها:

«هذا صحيح. لكنك احسنت صنعاً عندما اتقيته. وارجو الا تقولي شيئاً الا بعد تلقينك اياه مسبقاً. فبالامكان تشويه تصريحات تدلين بها الى الصحافة، وبسهولة استغلالها ضد قائلها».

«صحيح يا جدتي. لقد فهمت. ولكن، ألم تتناولي الغداء حتى الآن؟».

«كلا. سنتناوله هنا. فهلا طلبت يا عزيزتي من ايميلي ان تحضره».

اطرقت سمانثا بينما ابتسمت اللايدي دافنبورت وسألتها:

«هل انت متلهفة لحفلة الليلة؟».

«ليس بالضبط لانها تخيفني».

«هراء. تذكري ان الناس يريدون مقابلتك مهما كان شعورك وذلك لانك ابنة بربارا هاريت».

وتصنعت سمانثا الابتسام وهي ترد على جدتها:

«اعلم ذلك. وهذا ما يزعجني. ولكن، في اي حال، سينتهي الامر سريعاً».

واتخذت الترتيبات حتى يوصل بارنز سمانثا الى شقة امها قرابة

الخامسة والنصف مساء، لأن بربارا رغبت ان تصل ابنتها قبل الحفلة التي تبدأ عند السادسة حتى تريها شقتها وتعطيها بعض التعليمات. واحست سمانثا انها اشبه بخادمة استؤجرت الليلة لاداء دور ابنة بربارا. ولذلك عليها ان تلقّن الدور سلفاً.

واظهر بارنز استرخاءه معها، فتحادثا بمودة وهما في الطريق الى شقة بربارا الكائنة في شارع بلغرايف، مما خفف من توتر سمانثا.

وتركها بارنز في مدخل البناية بعد ان اوصلها باستعمال المصعد الى الطابق الثالث حتى تبلغ الشقة رقم ثلاثة وثلاثين. ثم اضاف:

«ستكون الآنسة هاريت في انتظارك. واتمنى لك حظاً سعيداً».

ردّت عليه سمانثا مبتسمة:

«اشكرك. واني بحاجة لدعائك».

واجتازت الممر المفروش بالسجاد ببطء فيما نظرت الى الارقام الملونة المدونة على الابواب. واحد وثلاثون، اثنان وثلاثون، ثلاثة وثلاثون. لقد وصلت!

وقرعت الباب قرعاً خفيفاً قبل ان تكتشف وجود الجرس. فضغطت الزر وفتحت لها خادمة ترتدي بزة رسمية. حيّتها سمانثا بارتباك وهي تأسف هذه البداية المزعجة:

«انا آسفة. أليست هذه شقة الآنسة هاريت؟».

اجابت الخادمة باعتداد وثقة:

«صحيح. لا ريب انك الآنسة كنغزلي».

«اجل. وانا والدتي بانتظاري كما اظن».

«اعلم ذلك. تفضلي بالدخول».

خطت سمانثا على سجادة فاتحة السواد اخذت تتأملها باندهاش قبل ان تضطر لتحويل عينيها عنها اذ دعتها الخادمة الى دخول الغرفة. وكانت الحجرة مثل اعلان مصور لقطع الاثاث الحديثة.

وأحست سمانثا كأنها وقفت صدفة عند واجهة معرض لقطع الاثاث اذ خلت الحجرة من الحضور الانساني، ولمحت في الطرف المقابل للنافذة الضخمة باباً واسعاً يفتح على الشرفة. فانشدت باتجاهه بعد ان ذهبت الخادمة لاعلام والدتها بوصولها. وفتحت الباب، فخرجت منه الى شرفة

واسعة تطل على ساحة بلغرايف. واخذت تَنشق الهواء المنعش الى ان اجفلها صوت أمها:

«هل تستمتعين بالمناظر؟».

استدارت سماننا لترى بربارا واقفة في الباب وقد ارتدت ثوباً أسود من الحرير السميك مخصص لحفلات الكوكتيل والتصق بكل مفصل من جسمها الصغير. وتأملت سماننا أمها التي بدت آية في الحسن. كيف يمكنها ان تكون شريرة الى هذا الحد؟ واجابتها اخيراً:

«اجل. احسب اني أول الواصلين».

«اجل. تعالي الآن الى غرفة نومي حيث تخلعين معطفك وتقوم كلايد على تسريح شعرك لان الهواء قد عبث به قليلاً».

«كلايد؟ هل هي المرأة التي فتحت لي الباب؟».

«اجل. هل ازعجتك بشيء؟».

«قليلاً».

ابتسمت بربارا واجابتها:

«عندما تتعرفين الى كلايد، تكتشفين فيها امرأة ممتازة».

كانت غرفة بربارا واحة تريح النظر بالمقارنة مع صحراء ردهة الاستقبال. فالسجادة فرنفلية اللون، والستائر المقصبة وردية. اما غطاء السرير، فله لون القشدة والورد. وشعرت سماننا ان هذه الغرفة لا تشبه معرضاً للأثاث كالردهة.

سرحت كلايد شعر سماننا، فيما رشت عليه سائلاً يثبّت الشعر. اما بربارا، فاطرت اختيارها لملابسها:

«ارى انك اخترت أنسب الملابس لحفلة من هذا النوع».

ولما خرجت كلايد، قالت بربارا لابنتها:

«سنبقى هنا في غرفتي حتى نخرج معاً بحيث يظن الجميع اننا كنا نتبادل الاسرار النسائية».

وبينما تحادثت سماننا وبربارا في غرفة الاخيرة، عملت كلايد على ترتيب اطباق الكوكتيل ووضع الصواني. وعندما قرع الجرس معلنا قدوم الضيوف الاوائل، كان كل شيء قد رتّب. وكان اول الواصلين تشارلز باريت، وكيل اعمال بربارا، وزوجته الشابة أنابيل. وتحدثت أنابيل برقة

وجاذبية الى سماننا فحدثتها عن حياتها المنعزلة في ايطاليا وعن مدى استمتاعها بلندن.

وكان على سماننا ان تدّعي انها نشأت في ايطاليا على يد مربية متقدمة في السن، وتلقّت دروسها في احد الاديرة. وهذا بحد ذاته صحيح. كما توجب عليها ان تقول انها دخلت المجتمع بناء على اقتراحها هي وبعد اقناعها لوالدتها التي اصرت على ضرورة اكمال تعليمها وعودتها الى لندن.

حضر الحفلة عدد من الازواج والزوجات المرتبطين بالمسرح. وبعد ان تعرفت سماننا على بعضهم، لم تعد تتذكر الاسماء. ووصل شابان في الثامنة عشرة من عمرهما بعد نصف ساعة من بداية الحفلة. فاحضرتهما بربارا الى ابنتها فوراً قائلة:

«سماننا، اريد ان اعرّفك باثنين من اصدقائي. كين مايدسون وآندرو فرايزر».

إبتسمت سماننا للشابين وصافحتهما. ثم وصل شخص آخر، فاعتذرت بربارا وذهبت لتحيي الزائر الجديد.

كان آندرو فرايزر اكثر جاذبية من صديقه. وقد انفرد بسماننا اذ انشغل كين مايدسون بالتحدث الى وكيل اعمال بربارا. جلس آندرو مع سماننا على اريكة واطئة وقال:

«اما الآن، فحدثيني عن نفسك».

«الحقيقة ان حياتي خالية من الاحداث المثيرة. فحدثني انت عن نفسك. ماذا تعمل؟».

اسند آندرو رأسه على ظهر الاريكة الجلدي:

«الحقيقة اني وكين نقوم بعمل مشترك. ولو لم تعيشي طوال هذه المدة في ايطاليا، لسارعت الى القول بانك كنت ستسمعين بنا. فنحن نطلق اسم كينآندروز على فرقتنا. هل فهمت؟».

«اجل. هذا عظيم. هل تغنيان معاً؟».

قهقه آندرو:

«أجل. بصحبة القيثارة. وهذه هي البدعة الرائجة في هذه البلاد الآن. ام لعلك لم تسمعي بها؟».

«آه، بلى! فانا اعلم ان هناك عدداً كبيراً من الشبان في. . . فرق غنائية، اليس هذا صحيحاً؟».

«بلى. فنحن نثاني يعمل معنا طبال يدعى ريكي لاندور. غير انه بطيء. . .».

«بطيء؟».

«انه. . . ليس. . . ليس سريع البديهة».

استمتعت سمانثا بحديث رفيقها الشاب. فسألته:

«الا يطيل اعضاء هذه الفرق شعورهم؟ صحيح ان شعرك. . . طويل نوعاً ما، الا انه ليس بطول شعور بعض المغنين الذين رأيت صورهم في المجلات والصحف منذ حضرت الى انكلترا».

فردّ بشيء من الغم:

«الحقيقة ان أمي لا تطيق ان ترى شعري طويلاً».

وتحدثا برهة عن مواضيع مختلفة. وكررت سمانثا قصتها فيما راقبت والدتها من طرف عينيها. فبدت لها محبوبة وشعبية، الامر الذي دفعها للتساؤل عما اذا كان هؤلاء الناس يحبونها لذاتها، ام لانها ممثلة شهيرة وذات نفوذ واسع.

وترددت بربارا على ابنتها بين الحين والآخر، فشبهت سمانثا سلوكها بالسلوك المفروض على الوصي الأمين. وأرضاها عثور سمانثا على شخص يسليها بحيث لم تعد بحاجة الى انتباه والدتها المستمر.

وامتلأت الغرفة بالمحتفلين. فتساءلت سمانثا اذا كانت امها ستعرّفها على الرجل الذي قالت جدتها انه اصبح جزءاً مهماً من حياة بربارا. وقدمت بربارا العديد من الرجال العازبين الى سمانثا، غير انها ساوت بينهم في الاهمية.

وقرع جرس الباب مجدداً، فاتجهت بربارا نحوه لتفتحه. وتطلعت سمانثا بتكاسل وهي تتوقع ان ترى زوجين حضرا الى الحفلة وقد تأخرا كثيراً. وامكنها ان تسمع حديث والدتها الحيوي، ورأت الزائر يقف ويخلع معطفه وقد أدار ظهره لأمها. تغيرت هيئة بربارا كلياً، وازدادت حيويتها ورقتها. وانكشف وجه الرجل، فامتقع وجه سمانثا. وتجهم لها آندرو الذي كان يسدد اليها نظره ويحادثها عن آخر الصرعات في عالم الرقص.

وسألها بقلق:

«هل هناك ما يزعجك؟ ان وجهك شاحب».

هزت سمانثا رأسها:

«اني بخير».

«اذا كان يهمك ان تعرفي الزائر الجديد، علي ان اعلمك انه خالي».

اجبرت سمانثا نفسها على الاحتفاظ بهدوئها:

«هل هو خالك حقاً؟ من. . . من هو؟».

«يا الهي. من الواضح انك فقدت كل اتصال بانكلترا. انه باتريك مالوري الكاتب المسرحي الشهير. وهو الذي يكتب المسرحية الجديدة التي ستقوم امك فيها بدور البطولة».

«اذن، فهو يكتب المسرحيات!».

وبلعت سمانثا ريقها بصعوبة، فيما قال آندرو:

«هل ترغبين في لقائه؟ يخيل الي ان بربارا ستحضره الى هنا. فهما قريبان جداً من بعضهما».

وتنبهت سمانثا الى حماقتها. الا ان لسانها انعقد في هذه الاثناء، وانشدت عيناها الى باتريك بصورة آلية وقد ابتسم ابتسامته الهادئة فيما يتحدث بسهولة وهدوء الى امها وعدد قليل من الضيوف الذين تحلقوا حولها. وخيل لسمانثا انه رائع ببزته الرمادية الداكنة، وشعره الاسود المسرّح بدقة لا تضاهى، وبشرته السمراء التي تلفت الابصار.

هل يمكن ان يكون هذا هو الرجل الذي تريد أمها ان تتزوجه؟ كلا، بالطبع. لكنها وثقت انه هو. من المؤكد ان بربارا تتصرف على هذا النحو تجاه اي شخص آخر، ولم يخرج سلوكها عن اطار الشخصية التي رسمتها لها ابنتها. انها الآن جذابة وفتانة بانوثتها البالغة، وقد زالت عنها البرودة. تحولت الى امرأة شابة مغرية تسعى بكل جهدها الى أسر رجل وسيم واستعباده.

ثم بدأت سمانثا تقيّم موقفها الشخصي على ضوء هذه الخواطر. فمن المفروض انها ابنة ستة عشر عاماً، وستقدّم الى باتريك على انها ابنة بربارا المراهقة. وعاودها انقباضها وتكتّمها السابقان. لو ان بربارا قبلت بها كما هي!

ولكن، لماذا تهتم بمسألة عمرها؟ فأياً يكن عمرها، لن يتكرم عليها أحد بأكثر من نظرة طالما بقيت بربارا بجوارها. وبربارا مصممة على البقاء بجوارها. وهي لا تشك في ذلك لان صفات التملك والسيطرة بارزة في كل ملمح من ملامح والدتها وهي تمسك ذراع باتريك مالوري بوقاحة.

ورشفت بعض عصير الاناناس فيما حاولت تكييف نفسها ثانية مع آندرو الذي استأنف حديثه. صحيح انها ظلت في حالة ذهول، الا ان الصدمة الاولى قد ولّت. وسألت آندرو وهي عاجزة عن تحمل المشكلة بمفردها:

«اخبرني، كم هو عمر خالك؟ أخاله لا يزال عازباً».

«اجل، انه ما زال عازباً. وهو يناهز السابعة والثلاثين من العمر على ما اظن. ولكن، لماذا تريدين ان تعرفي؟».

وقهقه ثم اضاف:

«هل تجدينه جذاباً؟ ان معظم النساء يشاطرنك شعورك. ولكن، ربما لا زلت صغيرة. ولعلك لم تبلغي هذه المرحلة من العمر».

تصنعت سمانثا الابتسام وهي تجيب:

«لا اوافقك على رأيك لانني اعتبره جذاباً للغاية».

ازدادت تكشيرة آندرو اتساعاً:

«وماذا عني؟ هل تعتقدين ان بامكانك تحمّلي طول السهرة، في الخارج وبمفردك طبعاً؟».

«اظن ذلك. ولكن، هل اعتبر كلامك دعوة؟».

«بكل تأكيد. وما عليك الا تحديد اليوم».

ثم ضحكا. وخطر لسمانثا خاطر جعلها تعرف لماذا لم تدهشها والدتها خلال لقائهما الاول. انها هي المرأة التي استقبلت باتريك مالوري يوم وصوله من مطار ميلانو!

والتهما فكرة ذهاب امها الى المطار لاستقبال باتريك مالوري، وهي على الارجح تعلم انها سيصلان معاً ومع ذلك لم تبذل أي جهد لتحديد مكان ابنتها. لله ما اقسى قلبها!

وبلعت سمانثا ريقها بصعوبة مرة اخرى. عليها ان تحافظ على هدوئها مهما بلغ الثمن.

ولم تدهش لكون باتريك مالوري أحد المشاهير. فهذه الحقيقة توضح سبب تملّق المضيفة له. ولكن افظع ما في الأمر هو معرفة بربارا الجيدة به. ولا شك انه السبب في عدم مشاهدة سمانثا لأمها الا قليلاً منذ وصولها الى لندن. ولا بد ان يكونا قد امضيا الساعات الطوال مع بعضهما.

وكادت سمانثا تقفز عندما سمعت صوت أمها يرن في اذنيها:

«أود ان اعرّفك يا حبيبي بصديق عزيز جداً».

وانتصبت سمانثا واقفة فتصورت انها طغت على بربارا وقدها الصغير. لكنها لم تشعر بالنقص لأن باتريك مالوري كان اطول منها بكثير، فحدقت فيه بتمعن. وعكست عيناه استغراباً وانشداهاً لحظة قبل ان تتناول بربارا طرف الحديث:

«عزيزي باتريك، هذه هي سمانثا. سمانثا الصغيرة كما ادعوها. لكنها ليست صغيرة ابداً كما ترى».

زادت كلمات بربارا ابنتها حيرة وارتباكاً. اما باتريك مالوري، فاسترد هدوءه واجاب:

«انها آية في الحسن يا بربارا. وارى انك دفنت سرّك طوال هذه السنين».

لم تتوقع بربارا صدور مثل هذا التعليق عن باتريك، الا انها استطردت:

«كم كانت بهجتي عظيمة باسترجاعها».

«انا واثق من ذلك».

اطبقت سمانثا اصابعها على كوب العصير لأن سخريته كانت واضحة. وتيقنت ان بربارا تحس بها أيضاً. غير ان الاخيرة لم تظهر انزعاجها حين اضافت:

«هل يعتني آندرو بك جيداً يا حبيبتي؟».

فابتسم آندرو:

«بكل تأكيد».

ابتسم باتريك لابن شقيقته ابتسامة دافئة اقنعت سمانثا انهما صديقان حميمان. ولما تمكنت سمانثا من النطق آخر الامر، قالت لأمها:

«اني استمتع بصحبة آندرو. لقد سمعت يا سيد مالوري انك كاتب

مسرحيات».

بلل باتريك شفتيه بلسانه قبل ان يرد:

«اجل. وانت، ماذا. . . ماذا تعملين؟».

عقبت بربارا بجذل:

«لا شيء، طبعاً. ولا يجب يا عزيزي ان تبالغ في مراحك مع سمانثا لانها ستقيم مع والدتي في دافن. اليس ذلك ممتعاً؟».

هز باتريك كتفيه العريضتين قائلاً:

«اذا كانت سمانثا ابنتك يا بربارا، فاني اتصورها تفضل حياة المرح والاضواء على حياة الخمول والركود في الريف».

اطبقت بربارا شفتيها. واحست سمانثا ان صبر امها بدأ ينفد فيما اوضحت:

«لا تنسى يا عزيزي ان سمانثا لا تزال مراهقة».

هنا، رد آندرو عليها بقوله:

«لم يعد المراهقون من عداد الاولاد في هذه الايام. فانا في الثامنة عشرة من عمري كنت اتمتع بحق الاقتراع».

استدقت شفتا بربارا وهي تجيب بترو مصطنع:

«وارى انكما تقرران مستقبل سمانثا بدلاً عنها. والافضل ان نسألها اين تريد ان تقيم».

القى باتريك نظرة باتجاه سمانثا:

«فعلاً. ما رأيك يا سمانثا؟ هل تروق لك الحياة الهادئة الرتيبة؟».

ترددت سمانثا برهة وقد فطنت الى نظرة بربارا الشرسة المصوبة نحوها:

«انا. . . الحقيقة. . . لم ازر دافن ابداً. . . منذ سنوات عديدة على الاقل».

ثم اسرعت لتضيف:

«وجدتي تقول ان لديها خيولاً اتدرب على ركوبها. . . وهناك الريف استكشفه. . .».

التمعت السخرية في عيني باتريك:

«ولكن، هل ستعجبك الحياة هناك؟».

فصاحت بربارا وقد خانها صبرها:

«طبعاً ستعجبها. هيا يا باتريك، فاني اريد ان اقدمك الى اناس كثيرين. . .».

سمع باتريك لبربارا بابعاده عن ابنتها، غير ان سمانثا رأت افكاره تنعكس في نظرته المرتبكة. لو انها لم تلتق به في الطائرة، كم كانت الامور ستكون اقل تعقيداً. من المؤكد ان بربارا لن تسر اذا علمت بالامر. فكيف يسعها ان تفسر لباتريك سبب استقبالها له في المطار، وهو القادم مع ابنتها في طائرة واحدة، دون ان تكلف نفسها عناء التحدث الى فلذة كبدها؟

وهناك قضية مقتل والد سمانثا مؤخراً. فكيف يوفق باتريك بين هذه الحقيقة وبين ادعاء بربارا ان زوجها توفي منذ زمن بعيد؟

ويتحدثون عن خيوط العنكبوت! هنا مأزق أدهى واخطر.

لم يستطع آندرو ان يفهم سبب انفعال سمانثا. كانت تحدق في كوبها دون انقطاع، ولم تعره كبير اهتمام. لكنها قالت في نهاية المطاف:

«ارجو المعذرة. فهذه وقاحة مني. ارجوك ان تتابع حديثك».

وتحدثا بعض الوقت قبل ان يخرجا الى الشرفة، حيث لم يجرؤ احد على الذهاب رغم ان أبواب الردهة كانت مفتوحة. الا ان سمانثا وجدت الهواء البارد منعشاً بالنسبة الى حرارة الغرفة وجوّها الخانق. وظلت تتساءل كيف يمكنها ان تخبر بربارا بانها تحدثت الى باتريك مالوري قبل اليوم. لقد تصرف كلاهما وكأنهما غريبان عن بعضهما. وهذه غلطة باتريك بقدر ما هي غلطتها. فقد كان بامكانه القول انهما التقيا في الطائرة. ولكن، لماذا لم يفعل؟

واتكأ آندرو على درابزين الشرفة. ثم قال:

«الجو حسن الليلة. فماذا تنوين ان تفعلي بعد انتهاء الحفلة؟».

ردت سمانثا بصراحة:

«لم افكر حتى الآن. هل لديك أي اقتراح؟».

بدت لها فكرة الابتعاد عن كل هؤلاء الناس فكرة حسنة.

«لا عمل لدينا انا وكين الليلة. فما رأيك ان تقضي السهرة معاً؟».

اوضحت سمانثا بتمهل:

«علي ان اطلب اذناً من والدتي اولاً. كما ينبغي ان استشير جدتي».

فعبس آندرو:

«الا تعتبرين صحبتي اكثر امتاعاً من صحبة جدتك؟ وجدت الحل. فأنا اعرف نادياً للرقص يقدم موسيقى حديثة. هل تجيدين الرقص؟».
رددت سمانثا ضاحكة:
«كلا. لكني سأتعلم. واخالك ستكون معلماً ناجحاً».
عندئذ سألها صوت متمهل:
«وماذا سيعلمك؟».
استدارت سمانثا لترى باتريك مالوري يستند الى اطار الباب الواسع وهو ينظر اليها نظرة متهكمة. فرمت آندرو بنظرة وهي تقول:
«سنخرج الليلة... سوياً. وسيعلمني آندرو كل الرقصات الجديدة».
انتصبت قامة باتريك وهو يسألها:
«هل سيفعل؟ ظننتك ترغبين بتناول العشاء معي ومع والدتك. فلا بد ان نعرف بعضنا بشكل افضل، الا تعتقدين ذلك؟».
احست سمانثا بالدم الحار يتصاعد الى خديها. ولم ترغب بان تقضي الامسية معه لان الاخطار المحيطة بها ستكون اكثر مما تطيق. كما انها لم تكن ترغب في ان تقدم له اعترافاتها. وبشدّ ما ارتاحت اذ قال آندرو قبل ان تتمكن من الرد:
«ماذا؟ هل تريدها ان تقضي الامسية وهي تؤدي دور الدخيل؟ لن يحصل ذلك يا باتريك فهي ستخرج معي. وفي اي حال، الا تجد شيئاً اكثر اثارة تسلّي به نفسك؟».
اضطرب باتريك، وابتسم ابتسامته الجذابة المألوفة:
«وما همك يشؤوني ويشؤون متعتي وتسليتي؟».
فضحك آندرو:
«لاني احبك كما احب نفسي».
وهنا اندفعت بربارا خارجة من الباب الواسع صائحة:
«باتريك، ماذا تصنع هنا؟ كنت ابحث عنك».
ثم التفتت ورأت ابنتها وآندرو. فسألتهم وهي تبتسم ابتسامة غاضبة بعض الشيء:
«وهل قاطعت حديثكم؟ فانتم جميعاً تبدون كأنكم تتآمرون؟».
نظر آندرو الى خاله باضطراب. فقال باتريك:

«الحقيقة اني اقترحت على سمانثا تناول العشاء معنا الليلة. الا ان آندرو عرض افكاراً اخرى».
لم تستطع بربارا اخفاء انزعاجها، بل صاحت:
«اني اشاطره رأيه لان من الواجب ان تقيم سمانثا صداقاتها الخاصة. وهي كبيرة الى حد لا يسمح لها بالحضور معنا».
ابدى باتريك ملاحظة ساخرة:
«لعلها تستمتع بصحبتنا. ومن يسمعك يا بربارا تطردين ابنتك وتنفيها الى دافن فور وصولها الى لندن، ويرى انك لا تسمحين لها بمشاركتنا العشاء، يحسب انك لم ترغبي في وجودها اصلاً».
فاحمرت بربارا خجلاً وارتباكاً، وادار آندرو وجهه ليخفي استمتاعه بالشجار. فباتريك هو الرجل الوحيد بين الكثيرين ممن عرفتهم بربارا يستطيع ان يعاملها على هذا النحو. وقد عانت للمرة الاولى تجربة تسليط الاضواء على شخص آخر يقف الى جانبها.
انتهت حفلة الكوكتيل بعد السابعة قليلاً. ولما كان باتريك مالوري قد غادر الغرفة قبل نصف ساعة، سُرّت سمانثا بذلك لانها استطاعت ان ترافق آندرو الى السهرة كما اقترح. وعندما ابلغت امها بذهابها، افهمتها عينا بربارا الغاضبتان انها في حالة حزن وغضب. وتأكدت سمانثا انها لو بقيت مع والدتها لوحدها، لصبت عليها جام غضبها الذي كانت تحاول اخفاءه ولم يرَ الغضب في عيني بربارا أحد سواها.
اصطحب آندرو سمانثا الى نادٍ في تشلسي تملؤه موسيقى صاخبة، فرقة من قارعي الطبول تعزف لحناً تلو الآخر، فيما اعضاء النادي الشباب ينتقلون من رقصة الى أخرى بشكل جنوني. ورأت سمانثا في ذلك شيئاً جديداً مذهلاً. ولم تصدق ان عليها النهوض للمشاركة في هذا النمط من الرقص.
ولما تعرّف الموجودون الى آندرو، القوا قيثارة بين يديه. وطلبوا اليه ان يغني. فدهشت سمانثا. الا ان دهشتها سرعان ما تبددت لتنقلب حماسة وفرحاً حين بدأ يغني الاغاني الشعبية التي شهرها هو وكين مايدسون. ولما عادا الى طاولتهما، امسكت بيده بقوة وهتفت:
«كنت عظيماً ورائعاً».

فتمتم آندرو قائلاً:

«هيا نرقص. ولنرقص معاً هذه المرة. هل انت موافقة؟».

«اجل».

ورقصا معاً بفرح. ووجدت نفسها تفكر كما تفكر ابنة ست عشرة سنة. وسرّها تحوّلها السريع من حال الى حال، فقد رغبت منذ ساعات قليلة وبصحبة باتريك مالوري ان تكون احدى النساء اللواتي يعجب بهن مثل امها، في حين تحولت الآن مع اندرو الى مراهقة.

وعندما تذكرت باتريك مالوري، تبخرت قناعتها التي احست بها حديثاً. ولم تقدر ان تتخلص من تأثيره المغناطيسي عليها بالرغم من كل محاولاتها. صحيح ان آندرو لطيف ومرح وخبير بالفتيات، على ما يبدو، الا ان باتريك كان شيئاً آخر. فهو مجرّب ايضاً، وتوحي تعابيره الحزينة احياناً بأن تجاربه لم تكن مرضية دائماً. وقد شعرت سمانثا بانوثتها الفعلية في حضوره.

«بماذا تفكرين؟».

اجابت متنهدة:

«لا شيء. ان باتريك مالوري رجل جذاب للغاية، أليس كذلك؟».

سدد اليها آندرو نظرة استغراب:

«يا الهي! انه يكبرك كثيراً من حيث السن».

«اعرف، اعرف. لقد حاولت ان اكون موضوعية في تقييمي».

فتساءل آندرو متشككاً:

«هل حاولت حقاً؟».

«هل انت الابن الوحيد لابويك؟».

هتف متعجباً:

«انا! كلا. فان لي شقيقين وثلاث شقيقات».

«هل انت اكبرهم سناً؟».

«اجل. ان جدتنا لأمي ايطالية».

«هذا يفسر سبب سمرة خالك».

«صحيح. فهو يشبه امه في حين تشبه امي والدها المتحدر من اصل ايرلندي. انه لميراث معقد، أليس كذلك؟».

تنهدت سمانثا. لقد قضت سهرة ممتعة رغم ما شابها من تعقيدات. على انها كانت متعبة الى حد بعيد عندما وصلت الى الفندق. ولشد ما دهشت اذ وجدت جدتها لا تزال ساهرة بانتظارها.

وسألتها الجدة:

«هل قضيت وقتاً ممتعاً يا عزيزتي؟ انك تبدين مشرقة. ولا بد انك استمتعت بسهرتك».

هتفت سمانثا مؤكدة:

«لقد فعلت. لكنها كانت سهرة متعبة».

وبدا الفضول على وجه سمانثا وهي تسأل:

«ولكن، لماذا ما زلت ساهرة؟ أولست متعبة؟».

عضت اللايدي دافنبورت على شفتها:

«اريد ان احدثك في أمر مهم. لقد... لقد حضرت بربارا الى هنا هذا المساء وهي في حالة غضب شديد».

توقفت سمانثا عن عملها لتسأل:

«لماذا حضرت؟».

«يبدو انها كانت غاضبة لأن حبيبها... الحالي... قد خيب أملها. هل تعرفينه؟».

«التقيته هذا المساء. الم تخبرك بذلك؟».

«الحقيقة انها فعلت. فهل قلت شيئاً يثير غضبها يا عزيزتي؟ لقد كانت في حالة هستيريا. وقالت انك جعلتها تبدو مغفلة».

اتسعت عينا سمانثا:

«يا للسماء! انها هي التي جعلت نفسها تبدو مغفلة. أليس لها شيء من الكبرياء؟».

اجابتها اللايدي دافنبورت:

«ان عثورها على رجل لا ينقاد لها بسهولة تجربة جديدة عليها. ويبدو ان باتريك مالوري يلعب لعبته ببرودة بالغة».

فتمتمت سمانثا وهي تشعر بارتياح عارم بالرغم من كلمات جدتها القلقة:

«هذا صحيح».

«حسناً يا سمانثا. على اية حال، احرصي في تصرفاتك امام أمك لأني لا أريد ان يلحق بك أي اذى. بربارا شرسة للغاية عندما تغضب».

صاحت الحفيدة الشابة:

«لكني لا أرى اني ارتكبت غلطة. قضيت السهرة مع آندرو فرايزر ابن شقيقة باتريك مالوري. فما الخطأ في ذلك؟».

«لا شيء. لقد فهمت ان حفلة الكوكتيل هي السبب وراء كل هذا الاضطراب. ويبدو ان امك تعتقد انك كنت تسخرين منها، فهل فعلت؟».

تنهدت سمانثا:

«كلا. يا جدتي! لو رأيت كيف حاولت ان تمتلك هذا الرجل. وان اختار باتريك قضاء سهرته في مكان آخر، فالذنب في ذلك ذنبها. لقد حاولت السيطرة عليه واستعباده. ولا اظن ان بمقدور أي امرأة ان تتسلط على باتريك مالوري».

«هذا واضح. حسناً يا سمانثا».

وترددت سمانثا برهة. هل تخبر جدتها بلقائها مع باتريك مالوري في الطائرة؟ لم تستطع ان تجد الكلمات المناسبة للتحدث عن هذا الأمر، فهي متعبة للغاية هذه الليلة، ارهقها ما احاط بها من مكر وخداع وكراهية. واخيراً، سألت جدتها بهدوء:

«هل يزعجك ان آوي الى فراشي الآن؟».

ابتسمت اللايدي دافنبورت لها وهي تربت على رأسها:

«كلا يا عزيزتي. واني آسفة على افساد سهرتك بهذا الحوار».

فقالت سمانثا برقة وهي تنحني لتقبل وجنة جدتها:

«لم تفعلي ذلك. والآن، تصبحين على خير يا حبيبتي. لا تضطربي. فانا اتصور اني كبرت كثيراً منذ لقائنا الاول. واني لعلى ثقة ان كل شيء سيكون على ما يرام».

٤ - الجميع يريدونها . . .

غادرت اللايدي دافنبورت الفندق باكرا في صباح اليوم التالي، بعد ان ابلغت سمانثا انها ذاهبة الى محاميها تاركة لحفيدتها الحرية في ترتيب شؤونها الخاصة. وشعرت سمانثا ان بربارا لا بد ان تحضر قبل الظهر وتطلب منها تفسيراً لما حدث. فقررت الخروج وتأجيل الشجار شبه المحتم بينهما.

وبينما تهم بالخروج، رنّ جرس الهاتف.

ونادت ايميل طالبة اليها الرد على المخابرة، بينما رفعت السماعة قائلة

«جناح اللايدي دافنبورت، هل يمكنني مساعدتك؟»

«بالفعل يمكنك».

خفق قلب سمانثا. كان الصوت صوت باتريك مالوري فسألته مضطربة: «آه، صباح الخير يا سيد مالوري. هل تريد محادثة امي؟ انها ليست هنا».

قاطعها باتريك:

«كلا. اني اريد ان احدثك انت. الم تتوقعي ذلك؟»

الحقيقة انها انتظرت حدوث ذلك ليلة الأمس. اما اليوم، فانها كادت تنسى الأمر لعجلتها في التهرب من والدتها. واجابته متنهدة:

«توقعت ذلك. واعتقد انك تريد تفسيراً. الحقيقة اني لا اعرف من اين ابدأ.»

«كلا. اتصور ان من الصعب التطرق الى الحديث الآن. اسمعي، لا ارغب في مناقشة الاسرار الشخصية على الهاتف، بل اريد رؤيتك».

ارتمت سمانثا على كرسي واطىء هاتفة:

«آه، هل تريد ذلك؟» .
«اجل. والآن فوراً ما هو برنامجك اليوم؟»
«حسناً . . . قال أندرو انه سيتصل بي. ولست ادري برنامج جدتي التي قصدت محاميها هذا الصباح».
«حسناً . هذا يعني انك حرة حالياً».
«اعتقد ذلك. هل تريد ان تحضر الى هنا؟»
وسمعت سمانثا ضحكة باتريك العذبة:
«آه، كلا. فانا اتصور ان بربارا ستزوركما في اي وقت . ولا ارغب ان تقطع محادثتنا بسبب قدوم أمك العزيزة».
«حسناً، ماذا تريدني ان افعل؟»
وشعرت سمانثا بالاضطراب اذ لم تتأكد ان من واجبها مقابلة باتريك مالوري في اي حال . ولكن ، كيف يمكنها ان ترفض ؟ واستأنفت حديثها متمهلة : «اصدقك القول بانني لا اعرف اذا كان من واجبي مناقشتك في اي امر من الامور دون موافقة امي . . . .»
رد عليها باتريك بصوت بارد تغلب عليها لهجة الامر:
«اذا لم تحدثيني الآن ، فستكون لي مع والدتك بضع كلمات جاسمة»
وايقنت سمانثا انه سينفذ تهديده. وكانت اعصابها مشدودة لانها وجدت موقفها غاية في الحرج. ولم تزدها معالجة باتريك للامر حباً له. واعتراها غضب جارف بينما قالت :
«حسناً ، وماذا تقترح ان افعل يا سيد مالوري وانت كما يبدو تمسك بكل الاوراق ؟» .
«هذا افضل ، اطمئني يا سمانثا ، فانا لن التهمك حتى ولو كنت طبقاً شهياً. واني اريدك ان تحضري الى منزلي».
ذهلت سمانثا. ورددت :
«منزلك ؟ وهل تملك منزلاً في لندن ؟»
اجابها بجفاء :
«هذا واضح. وعنوانه ٣٤ هاي تاور رود وهو متفرع عن شارع غرابت بورتلاند . فهل انت قادرة على التوجه اليه ؟»
عضت سمانثا على شفتها حتى سال منها الدم. واجابت بجفاء :

«افترض ان اي سائق تكسي يعرف اين يقع هذا العنوان»
فقهقه باتريك :
«آه كم تغيرت يا سمانثا. فلأسبوع خلا لم تكوني على دراية بطريقة طلب التكسي».
ردت عليه بحدة :
«الناس لا تبقى على حال».
وبدا انه ينتظر ردها. ولما لم تفعل، استأنف كلامه : «حسناً انتظر قدومك بعد قليل».
فقالت بهدوء :
«اجل يا سيد مالوري».
واقفلا الخط . ولم تلبث ان انطلقت الى هدفها بعد ان طلب لها البواب سيارة اجرة وبدت هادئة بالرغم من اضطراب معدتها. فان هي سمحت للذعر بان يتملكها، لاخفقت في مسعاها. وعليها ادارة لقائها بطريقة توافق عليها بربارا. صحيح انها لا تريد ارضاء امها، الا ان جدتها تستحق هذه الالتفاتة. كما يجب ان يفهم باتريك مالوري انه ليس من السهل ارهابها.
صرفت سائق التكسي بعد ان دفعت له اجرته. ثم تسلقت ثلاث درجات حجرية الى منزل رقم ٣٤ ذي الباب الواسع، والمطرقة النحاسية. ورفعت القارعة، ثم افلتتها لتنتظر ان يفتح لها الباب وقد ادخلت يديها في جيبي معطفها بعصبية.
كان يوماً لطيفاً معتدلاً. الا ان سمانثا، التي لم تألف تغير الطقس المفاجىء، شعرت بلذعة برد. وفجأة فتح الباب ووقفت امامها سيدة متقدمة في السن ترتدي بزة سوداء ومئزراً ذا مربعات. وتأكدت سمانثا ان السيدة ليست الا مديرة منزل باتريك. فقالت لها:
«اني . . . اني قادمة لمقابلة السيد مالوري. وانه بانتظاري».
فابتسمت المرأة لها بدفء :
«آه، اجل. لا بد انك الآنسة كنغزلي. تفضلي بالدخول. سأوصلك الى مكتب السيد مالوري الذي ينتظرك».
كان نظام التدفئة المركزية في المنزل يمنح جواً افضل بكثير من الهواء البارد في الخارج. فتحررت سمانثا من معطفها جزئياً وهي تنظر الى ما

حولها بشغف.

« تفضلي من هنا يا آنستي » .

فابتسمت سمانثا وهي تلحق بالسيدة عبر الباب ثم الممر العابر تحت السلم. وقرعت السيدة على الباب. ثم فتحته عندما سمعت صوتاً منخفضاً يقول :

« تفضل » .

وادخلت السيدة العجوز سمانثا الى الغرفة قائلة :

« الآنسة كنغزلي يا سيدي » .

ثم ذهبت مدبرة المنزل واغلقت الباب وراءها.

احست سمانثا انها احد المشاغبين الواقفين امام القاضي. الا انها انتصبت واقفة وتقدمت الى داخل الغرفة بأدب.

كانت الحجرة جذابة للغاية. فبعد ان صعقت سمانثا الحداثة المصطنعة في منزل أمها، توقعت ان ترى شيئاً مشابهاً في منزل باتريك. ولكن كم كانت مخطئة.

كانت جدران الغرفة مغطاة بالواح الخشب ايضاً كالقاعة، الا ان خزائن الكتب احتلت معظم مساحتها، فرأت فيها مكتبة اكثر منها مكتباً. وكانت الغرفة دافئة ومريحة تبعث الطمأنينة في النفس. ولولا الآلة الكاتبة القائمة على المكتب لما احس الانسان بانه يعيش في القرن العشرين، اذ لا يوجد جهاز هاتف في الغرفة. وتصورت سمانثا ان باتريك يغرق في عمله الى حد ابعاد كل شيء آخر عن تفكيره. وخيل اليها ان استقلاله في التفكير يتضح في كل شيء، كما اتضح في دعوته لها بالحضور الى منزله فوراً.

ونهض باتريك من خلف مكتبه بقامته المديدة وكتفيه العريضتين ليحييها. فبدت كل محتويات الغرفة صغيرة امامه، وكان أسمر بحيث افترضت سمانثا انه قضى عطلته في ايطاليا وهو يستحم تحت اشعة الشمس. ووجدت فيه جاذبية بالغة بحيث وجدت نفسها تحمر خجلاً دون سبب واضح مما وضعها في موقف حرج. وخاطبها باتريك متأملاً حسنها :

« مرحبا. كيف حالك اليوم ؟ »

عبثت سمانثا بازرار معطفها :

« اني على ما يرام. اشكرك » .

فنصحها مبتسماً :

« اخلعي معطفك لان الجو هنا دافىء كما تشعرين. ولن اخيفك بحيث اجبرك على الفرار » .

اطلقت سمانثا تنهيدة حارة بينما خلعت معطفها وقدمته الى باتريك ليعلقه على احد المقاعد. فقال :

« هذا افضل. تفضلي بالجلوس. هل ترغبين بسيكارة ؟ ان السيدة تشسترتون ستحضر لنا القهوة عما قريب » .

« شكراً لك » .

وتناولت سمانثا سيكارة قبل ان تفكر بما تفعل ثم تطلعت اليه لترى اذا كان يتوقع اية ردة فعل منها. فابتسم لها ابتسامته الخاطفة فيما تنهدت سمانثا واخذت مجة طويلة من سيكارتها.

وجلس باتريك هذه المرة على كرسي مقابل لكرسيها بحيث ركز عينيه عليها بشكل دائم. ولاحظت ان له أطول أهداب رأتها في رجل. وحين كان يغطي عينيه بأهدابه، كانت على يقين انه يتأملها دون معرفتها. وازعجها وجوده الى حد لم تود ان تقرّ به. وبدأت معدتها تتقبض تعبيراً عن الخوف الذي شعرت به لقد بدأت تحبه كثيراً وكثيراً جداً بحيث اصبحت كلمة « حب » خالية من المعنى عندما تستعمل لوصف شعورها تجاه رجل مثل باتريك. وتيقنت ان المرأة لا يمكن الا ان تحب او تكره رجلاً مثله. وقد كانت بربارا في الليلة الماضية دليلاً ساطعاً على صحة هذا الرأي. لقد كرهته لما اظهره نحوها من عدم اكتراث ولا مبالاة. وفي هذا الصباح شعرت سمانثا انها تكرهه، خصوصاً عندما تلقت منه مخابرة هاتفية اجبرتها فيها على عمل ما لا تريد.

اما الآن، فتبدل شعورها تجاهه بعد ان ركز عليها اهتمامه. وادركت ان بمقدوره ان يفتن جميع النساء، وانها على الأرجح لن تستطيع مقاومته اكثر من غيرها. وازعجها هذا الشعور كثيراً اذ عرفت انه اغراها بدعوته اياها الى منزله، وان حظ أمها في اثارته اكبر بكثير من حظها هي.

وخيل لها انه يهزأ بها ويداعبها. فتحركت باضطراب قائلة:

« الا يمكننا ان ننتهي من هذه القصة ؟ انا واثقة انك تتوق الى ازعاجي ومضايقتي » .

فسألها ساخراً:

« ولماذا تتصورين ذلك ؟ عزيزتي سمانثا، لقد كنا اصدقاء ونحن في الطائرة، او هكذا ظننت. وكيف كان يتسنى لي ان اعرف انك ابنة المرأة التي . . . »

وصمت فيما استحثته ان يستطرد:

« استمر في حديثك. المرأة التي . . . . »

ابتسم باتريك مجيباً :

« سنتحدث عن هذا الامر فيما بعد . ولكن، اود ان اعرف لماذا تشيع بربارا انك كنت تعيشين في ايطاليا بصحبة مربية، بينما الحقيقة هي انك عشت مع والدك؟ وهناك أمر آخر، اذا كان جون كنغزلي هو والدك فلماذا تقول بربارا انه توفي منذ سنوات ؟ »

مررت سمانثا لسانها فوق شفتيها الجافتين :

« حقيقة الامر هي ان والدي طلّق والدتي. وبربارا لا تريد اي دعاية مضادة تنشأ عن هذا. تصور ماذا يحدث لو اكتشف امر طلاقها وانا اعيش مع والدي كل هذه السنوات. . . »

اطلق باتريك سحابة دخان كثيفة من سيكارته ببطء واجاب :

« اجل. اذن. هذا هو سبب الخداع ».

« افترض ذلك ».

فتجهم وجه باتريك:

« ولكن، هذا يترك سؤالاً يتعلق بامر آخر قلته ».

فكرت سمانثا محاولة استرجاع ما جرى بينهما. وسألته بحياء:

« اي أمر ؟ »

« لقد قلت على ما اذكر انك لم تزوري انكلترا منذ كنت في الرابعة من عمرك. كما اضفت ان والدك فضل الا تفعلي ذلك. وبامكاني ان افهم سبب تفضيل والدك لبلد غريب على وطنه الاصلي بعد تجربته المؤلمة هنا. ولكن ما يحيرني هو، هل رأيت بربارا كثيراً خلال السنوات الماضية؟ من المؤكد ان هذا لم يتكرر كثيرا نتيجة مشاغلها العديدة».

اجابت سمانثا وهي تتمنى الا تضطر للكذب عليه:

« كلا. ليس كثيراً »

فابتسم متهكماً:

« اما بربارا، فتعاملك وكأنك الابنة الضالة منذ زمن بعيد. يا الهي. يا لها من ممثلة بارعة ! ولا عجب ان هي لم ترغب في الاعتراف بالحقيقة. واني اتصور ان مارتن برايور سيجعل فضيحة من قصتها ».

اتسعت عينا سمانثا:

« مارتن برايور . هل تعرفه؟ ».

ولاحظ باتريك بجفاء :

« الجميع يعرفون مارتن برايور، من اجل خطاياهم على الاقل ».

« فهمت. لقد اتصل بي ذات يوم واخذ يسألني عن حياتي في ايطاليا ».

« هل فعل؟ ربما كان ما فعله من قبيل الفضول ».

فسألته متنهدة:

« انه أمر لا يهمنا الآن، اليس كذلك؟ فانت الآن تعرف الحقيقة، وسرعان ما سيعرف الجميع ».

عندئذ ارتسم العبوس على ملامح باتريك:

« صحيح ومن سيخبرهم ؟ »

احمرت سمانثا خجلاً :

« الحقيقة اني ظننت. . . ».

ورفع باتريك حاجبيه الاسودين:

« هل فكرت؟ اذن، فان تفكيرك خاطىء لاني لا أزمع ان افضح بربارا امام العالم. ولماذا افعل؟ فهذا ليس امراً يهمني في اي حال. إن هي قررت ابقاء امر زواجها سرا ، فانا لا اكترث للامر ».

حدقت فيه سمانثا وقد شعرت بالارتياح يغمرها:

« ولكن. . . ظننت عندما دعوتني الى هنا صباح اليوم. . . ».

« اني سأتسلى بازعاجك وعذابك. اعلم ما تقصدين. حسناً ، لم يكن هذا مقصدي. فانا كاتب يا سمانثا والناس يهمونني ويثيرون فيّ الفضول. كما اني رغبت في معرفة السبب الكامن وراء هذه الحيلة التي لم تفاجئني. فانا اجد شخصية بربارا هاريت شفافة وواضحة مهما ظننت عكس ذلك. وفي اي حال، فاني اذكر انها استقبلتني في المطار في نفس اليوم والساعة التي وصلت فيها أنت. وهذا شيء آخر يكشف حقيقتها ».

وسألته فجأة:
« قل لي، لماذا لم تعترف بانك التقيتني من قبل في الليلة الماضية؟ ».
ضحك باتريك ضحكة رقيقة:
« يا الهي. لو اني فعلت، لتحولت حياتك جحيماً على الارض، خصوصاً في هذه الظروف. ويخيل الي ان بربارا ليست مسرورة منك بعدما لقيت من اهتمام كبير في الليلة الماضية، اذ يفترض في بنات السادسة عشرة ان يبتعدن عن واجهة الاحداث، واظن انك في السادسة عشرة فعلاً، ام ترى هذه مغالطة اخرى؟ ».
ترددت سمانثا اذ سهل عليها الاعتراف بعمرها الحقيقي، بعد ان تأكدت انه لن يخبر احداً، الا ان هذا الاعتراف سيزيد من عمر بربارا بشكل كبير. ومع انها لم تعن لسمانثا شيئاً كأم، الا ان الابنة لم ترغب بخيانة والدتها على هذا النحو الواضح ايًّا تكن مشاعرها. وقالت بتمهل:
« انها ليست مغالطة ».
وهنا قرعت السيدة تشسترتون الباب، ودخلت حاملة القهوة والكعك على صينية وضعتها فوق مكتب باتريك. ولما غادرت الحجرة، قال باتريك: « هلا تفضلت بصبِّ القهوة، ام افعل انا؟ ».
فانتصبت سمانثا واقفة وقد سرها التحول عن الموضوع قليلاً، فيما قالت وهي تشغل نفسها بامور القهوة:
« سافعل ذلك ».
وبعد ان صبت له فنجانه، ملأت فنجانها واضافت اليه بعض السكر والقشدة، ثم جلست وقد تملكها بعض الاضطراب. وخاطبها باتريك مبتسماً ابتسامته المائلة: « بعد ان انتهينا من صب القهوة، دعينا نتحدث عن شيء آخر».
« مثل ماذا؟ ».
« حسناً، دعيني افكر، هل اعجبتك انكلترا؟ وهل وفر لك آندرو بعض المتعة والسلوى مساء الامس؟ ».
« آه، بالطبع ».
وبرزت الحماسة على وجه سمانثا بينما استطردت:
« لقد غنّى ايضاً. انه رائع، اليس كذلك؟ ».

ردَّ باتريك:
« انه يبدو كذلك اذا كنت تحبين هذا النمط من النشاطات ».
« اعتقد انك تفضل برامج ترفيهية على مستوى اكثر تعقيداً وتقدماً ».
فالتمع السرور في محيا باتريك:
« حسناً. . . اني اكبر سناً من آندرو كما تعلمين. هل شاهدت عرض باليه؟ ».
« كلا. لقد ذهبت برفقة جدتي منذ بضعة ايام لحضور مسرحية ».
« ينبغي ان تحضري عرض باليه ».
فوافقته وقد اضافت بشيء من السذاجة:
« اجل. اني احب ذلك، كما احب حضور احدى مسرحياتك ».
فبدا السرور بشكل واضح على وجه باتريك:
« هل تحبين ذلك فعلاً؟ حسناً، اتصور ان احدى مسرحياتي لن تعرض قبل كانون الأول (يناير). المسرحية الجديدة ستفتتح في الطرف الغربي من لندن في مسرح غروسفينور، وستقوم أمك بدور البطولة. واحسب انك ستحضرين العرض في ليلته الاولى، هذا اذا لم تكوني قد مت من الركود والملل في دافن ».
« آه! أتعرض احدى مسرحياتك في لندن الآن؟ ».
« الحقيقة كلا. فالمسرحية الاخيرة توقفت عن العرض قبل ستة اسابيع، وهي الآن تجول المناطق والاقاليم المختلفة ».
وخابت آمال سمانثا لانها كانت تتطلع الى مشاهدة مسرحية من تأليفه. اما هو، فعلق بجفاء:
« عليك بضبط فضولك. اخبريني شيئاً عن حياتك في ايطاليا. فانا ارغب ان اعرف ماذا فعلت هناك ».
فتطلعت اليه وقد راودها شيء من الشك:
« هل ترغب فعلاً؟ الحقيقة انها كانت حياة بسيطة. فقد عشنا في احدى الفيلات وكان والدي يعمل فيما كنت امضي وقتي اساعده في كتابة رسائله او اعاون ما تيلد في عمل البيت. ولا اتوقع ان يكون هناك شيء يثير اهتمامك ».
فهمس متكاسلاً:

«لا اوافقك على ما قلته. فوالدتي تعيش في ايطاليا في فيلا بالقرب من بحيرة كومو. وقد امضيت الشهر الماضي كله معها. ألم تشتاقي الى المناخ؟».

«اعتقد ذلك رغم اني منذ وصولي كنت مشغولة... بامور اخرى».

فعلق ببعض السخرية، على حد ما ظنت:

«يمكنني ان اصدق ما قلته. ولكن، متى تذهبين الى دافن؟».

«لست ادري. اظن خلال اسبوع، فجدتي لا تطيق صخب لندن وضجيجها، وهي تفضل هدوء دافن».

«حسناً من المؤكد ان بامكانك الاقامة هنا مع امك بعض الوقت، اذ ان شقتها واسعة كثيراً».

«لا اعتقد ان بربارا.. اقصد.....».

وصمتت سمانثا وقد احست بعجزها، فيما تولى هو الكلام عنها:

«ربما لا توافق. ولكن يجب ان تتأكد انك تستمتعين بما تبقى لك من وقت في لندن، اليس كذلك؟».

فذهلت سمانثا، وسألته:

«من تقصد بـ «نحن»؟».

«اقصد انا وبربارا».

تركت سمانثا الحرية لقلبها بان يخفق بجنون، اذ كان يصعب ان تتصور انها تقتضي السهرة مع باتريك مالوري. من المؤكد انه ليس جاداً. وحتى لو كان فبربارا لن تسمح بحدوث هذا. وهنا سألها متهكماً:

«الا يعجبك ان تخرجي معي؟».

وتيقنت انه ادرك رغبتها بمرافقته. فقالت:

«حسناً. اعتقد ذلك. على اني لا اتصور ان امي ستوافق».

«حتى ولو دعوتها ايضاً؟».

خفت ضربات قلب سمانثا، اذ لم ترق لها الفكرة ابداً. فمجرد التفكير بمشاركتها لأمها وباتريك مالوري سهرتها، يجعلها ترى نفسها في دور الدخيل والمتطفل الدائم. فهما يكبرانها سناً، كما ان تصرفها كابنة ست عشرة سنة سيكون اسوأ مما لو كانت قد اعترفت بعمرها الحقيقي. فستكره على شرب الليموناضة او الكوكاكولا. ولن يمكنها ان تدخن! وهنا على

باتريك:

«بامكاني ان اتصور ان الفكرة لا تروق لك».

وفطنت انه تفحص ملامحها المعبرة وقرأ افكارها. وهمست بهدوء:

«لا اتصور ان ايا منكما سيسر بتطفلي عليكما. والى ذلك، فان آندرو وعد ان يتصل بي اليوم».

«اعلم ذلك. فلقد اتصل بي قبل وصولك وبرزت عليه معالم الاعجاب للمرة الاولى. لكني انصحك بالا تأخذي اقواله بمحمل الجد. فهو معروف بقلة اخلاصه».

ووقفت سمانثا لتضع فنجان قهوتها على الطاولة. قالت وقد اختنق صوتها: اشكرك على القهوة يا سيد مالوري، وكذلك تفهمك. لكن، يجب ان اذهب».

فابتسم لها، ووقف بجانبها. وكان قريباً منها بحيث استطاعت استنشاق رائحة رجولته الممتزجة برائحة معجون الحلاقة الذي يستعمله والتبغ الجيد الذي يدخنه. واربكها قربه منها، فاحست الخفقان المجنون في قلبها ثانية. لماذا يؤثر عليها بهذه الطريقة؟ وقال لها بحنو:

«لا تذهبي وانت غاضبة مني يا سمانثا».

فاجابته باضطراب:

«لا استطيع ان افهمك. واحسبك تسخر مني».

افتر ثغره عن ابتسامة اشد جاذبية من اي ابتسامة رأتها اذ خلت من المكر والسخرية، وعبرت عن الدفء والحنان والتفهم. الا انها ابتعدت عنه بسرعة:

«علي... علي ان اذهب. فوداعاً يا سيد مالوري».

فصحح قولها برقة:

«الى اللقاء».

وانطلق بسرعة ليفتح لها الباب. فتقدمته الى القاعة.

قاد باتريك مالوري سيارته الى موقف منزل هادئ في منطقة تشلسي حيث يقيم ابن شقيقته آندرو مع كين ما يدعون في شقة مشتركة. وكان الموقف صغيراً، فاضطر الى المناورة بسيارته بحيث يدور حول الدرابزين المركزي الذي تقوم وسطه شجرة حور ظليلة.

وكانت الشقق المفتحة على الموقف المنعزل ثمينة بالرغم من صغرها. وقد شغل معظمها افراد من اهل المسرح او احد الرسامين واوقف باتريك السيارة، ثم ترجل منها فلفح الهواء البارد وجهه الاسمر. وابتعد عن السيارة عابراً الساحة، وتسلق السلم الخارجي المفضي الى شقة آندرو. كان يملك مفتاحاً لشقة آندرو. ففتح الباب الذي يؤدي الى ردهة الاستقبال دون رسميات. وكانت الردهة خالية اذ لم تتجاوز الساعة العاشرة صباحاً.

ووضع المفتاح في جيبه. ثم اغلق الباب وعبر الردهة باتجاه باب غرفة النوم وفتحه. نظر الى الداخل حيث تدثر آندرو بكدسة من البطانيات. ويبدو انه لم يسمع اي حركة. فابتسم باتريك، واتجه الى سرير آندرو. ثم انحنى فوق الشاب قائلاً بصوت عال:

«صباح الخير يا آندرو».

وسمع صيحة مكبوتة تحت الاغطية وبرز منها رأس آندرو صائحاً.

«يا الهي! هل تريد ان تصيبني بنوبة قلبية لمجرد حضورك هنا عند منتصف الليل؟».

فانتصبت قامة باتريك:

«أود ان أعلمك ان الساعة الآن هي العاشرة صباحاً. وان الوقت قد حان لتبدأ نشاطك. فالصباح جميل ومنعش».

فتذمر آندرو وهو يجلس في السرير:

«ومتى كنت تعرف حال الطقس في مثل هذه الساعة من الصباح؟».

أجابه باتريك بسرعة:

«منذ اليوم. هيا، فأنا أريد بعض القهوة ولا أريد ان اصنعها بنفسي».

«اذن، لماذا لا توقظ كيت؟ من المؤكد انه سيسر بصحبتك اكثر مني في هذا الوقت».

فتذمر باتريك بينما يحل ازرار معطفه:

«وما هذا الاستقبال الصاخب المزعج؟ متى أويت الى فراشك في الليلة الماضية؟».

صحح آندرو قول خاله متنهداً:

«وهذا الصباح. أويت الى الفراش عند الرابعة. وحضرنا حفلة...».

«آه. في اي حال، هيا. فاني جاد في طلب القهوة».

نهض آندرو من سريره وقد علت وجهه تعابير الاذعان. ولما لم يكن يرتدي سوى بنطال البيجاما، فانه مد يده ليتناول ثوباً فضفاضاً سميكاً كان ملقى عند طرف السرير.

وعاد باتريك ادراجه الى ردهة الاستقبال. وانطلق من هناك الى المطبخ الصغير، فملأ ابريق القهوة الكهربائي. ولما عاد الى البهو كان آندرو قد وصل اليها وبدأ يبحث عن السكائر.

فقدّم باتريك له علبته. ثم ارتمى على احد المقاعد. وسأله آندرو فيما أخذ مجة طويلة من سيكارته:

«وما الذي يزعجك في هذا الوقت المبكر من الصباح؟».

«ليس هناك ما يزعجني. أريد ان أتحدث الى سماننا كينغزلي».

نظر اليه آندرو مستغرباً. ومرر يده على شعره الأشعث قائلاً:

«سماننا! لم أرها منذ الليلة التي أقامت بربارا فيها حفلة الكوكتيل، أي منذ أربعة أيام تقريباً».

«أعلم هذا».

«اذن، ماذا تقصد بقولك؟».

«هل حاولت رؤيتها؟».

«طبعاً. هل أنت تمزح؟ انها فتاة لطيفة اعجبتني كثيراً».

«حسبت ذلك. ولكنني أعني هل رأيتها منذ ذلك الوقت؟».

وازداد عبوس باتريك وتجهمه فيما أجابه آندرو:

«كلا. اما انت، فلا شك انك رأيت بربارا، أليس كذلك؟».

تأمل باتريك طرف سيكارته المشتعل وهو يقول:

«الحقيقة اني رأيتها. لكني لم اخرج معها اذا كنت تقصد ذلك».

برزت الحيرة على وجه آندرو اذ لم يستطع ان يفهم سبب اهتمام باتريك بفتاة لا يزيد عمرها على ستة عشر عاماً. صحيح انها ابنة بربارا هاربيت، الا ان آندرو اقتنع مؤخراً ان باتريك لم يعد يكترث ببربارا، ولم يحاول مقابلتها قبل اجازته. كما ان مطاردتها له اصبحت امراً مضحكاً في اوساطها، ومعروف ان باتريك لا يحب ان يطارد، بل يرغب ان يقوم بعملية المطاردة بنفسه. لذلك تخفق معظم النساء معه. ولما رأى باتريك

القلق على وجه الشاب، ابتسم له فجأة:

«حسناً يا آندرو. لا تضطرب. لن اقع في هوى مراهقة اذا كان هذا ما تخافه. على اني مهتم بسمانثا بالرغم من ذلك».

وسمع آندرو عندئذ صوت ابريق القهوة الكهربائي. فذهب الى المطبخ لاحضار القهوة. ولما عاد بالصينية، بادره باتريك بالقول:

«التقيت سمانثا في الطائرة ونحن في طريقنا الى لندن».

فاتسعت عينا آندرو:

«من ميلانو؟».

«أجل».

«الا ان ايا منكما لم يعترف بهذه الحقيقة في الحفلة. عندما افكر بالأمر اذكر ان لونها امتقع عند وصولك. وحينذاك تساءلت عن السبب».

هز باتريك كتفيه:

«كانت هناك أسباب لتفضيلنا الظهور بمظهر الغرباء، لا أزمع ان أتناولها هنا».

«ولكن، لماذا؟».

وهز آندرو رأسه فيما ناول باتريك كوباً كبيراً من السائل الحار. وقطب باتريك جبينه اذ أجاب:

«انه شأن خاص بنا كما قلت. صدقني انه ليس هناك ثمة لغز خطير. وسبب حضوري اليك هو رغبتي في ان تؤدي لي معروفاً».

ظهر الحذر على آندرو فيما جلس متمهلا على احد المقاعد المنخفضة.

«انك تفاجئني. فقد ظننت انك زرتني بدافع من محبتك».

فنظر اليه باتريك ضاحكاً وسأله:

«ماذا حدث عندما حاولت ان ترى سمانثا ثانية؟».

«حسناً، اتصلت بها هاتفياً، وأجابتني امها قائلة ان سمانثا تشعر ببعض التوعك للتغير المفاجىء في المناخ وقد أصيبت بحمى».

«ومتى كان ذلك؟».

«في اليوم الذي تلا الحفلة طبعاً».

غرق باتريك في التفكير، ثم طرح سؤالا آخر:

«وهل اتصلت بها منذ ذلك الوقت؟».

«أجل، البارحة. فقد أردت ان ترافقني الى حفلة الأمس. الا ان اللايدي دافنبورت ردت عليّ هذه المرة وأخبرتني انها مشغولتان بالاعداد للذهاب الى مسكن دافن خلال يوم او يومين، وان سمانثا مرتبطة بمواعيد مما لا يسمح لها برؤيتي».

فانتصب باتريك واقفاً لأنه عندما التقى بربارا البارحة صدفة في احد المطاعم التي يرتادانها بدت شديدة العاطفة والحب لسمانثا. واعتذرت عن عدم تمكنها من لقائه لأن وجود سمانثا أجبرها ان تكون أماً طوال الوقت. على انها تجاهلت كلياً حقيقة ان باتريك لم يسع ابداً الى لقائها. ومع انه لم ينزعج من خداع بربارا لنفسها، فانه انزعج من الدور المسند الى سمانثا في هذه اللعبة.

كان يريد ان يرى سمانثا بنفسه ويطرح عليها بعض الأسئلة. غير انه لم يكن يعرف طريقة تمكنه من تحقيق حلمه دون حضور بربارا او محاولتها منع مثل هذا اللقاء. لقد تصرف بغباء حين كشف حقيقة مشاعره في ليلة الحفلة. فلو تصرف مثل عاشق مطيع، لما حدث شيء من كل ذلك. لكنه فوجىء مفاجأة تامة حين رأى الفتاة التي شد اليها بصورة غريبة في الطائرة. واضطرب كيانه. واعتبر ان قضاءه بقية السهرة مع بربارا لعنة تحل عليه. وفي اي حال، كان عليه ان يأخذ وقته في التفكير، خصوصاً بعد ان أبلغ في ليلة الحفلة ان عمر الفتاة لا يزيد على ست عشرة سنة.

وبدا له ان ليست امامه اي فرصة للتراجع. لذلك يأمل ان يكون بمقدور آندرو الاتصال بسمانثا، فمن الواضح ان امها تزمع ابعاد ابنتها عنهم، وان هي أرسلتها الى دافن سيستحيل على اي منهم الاتصال بها، لأن دافن قرية بعيدة. والى ذلك، فاي حجة يتذرع لطلبه مقابلة سمانثا؟

عندئذ أدار باتريك ظهره لابن شقيقته وخاطبه:

«اسمعني. اتصلت بي امك هذا الصباح لتقول انهم يقيمون حفلة شواء الليلة».

«أعلم ذلك لأني التقيت بوالدي في المدينة نهار الأمس. ولكن، لماذا؟».

«هل ستحضر الحفلة؟».

هز آندرو كتفيه:

لم أكن أنوي ذلك. الا اني اعتقد ان لديك سبباً وجيهاً لتطلب الي ان اذهب».

«اني اتساءل اذا كانت بربارا توافق على حضور هذه الحفلة. فان هي فعلت، سادعوها هي وسمانثا موضحاً انك ستذهب برفقة سمانثا».

«وهل تعتقد ان بربارا ستوافق على الأمر؟».

هز باتريك كتفيه:

«أتصور ان بوسعي التأثير على بربارا...».

«هذا ليس خبراً جديداً».

«واذا دعوتها للذهاب، فاني أشك انها سترفض».

«بكل تأكيد».

«واذا دعوت سمانثا للذهاب، فان خطتي ربما تنجح».

هتف آندرو:

«لا أفهم شيئاً. على اني افهم انك تريد رؤية سمانثا».

«أجل».

«ولكن، لماذا؟».

هز باتريك كتفيه العريضتين:

«هل تحبها حقاً؟».

«كلا، انه شعور طبيعي. فهي فتاة لطيفة ولا أريد ايذاءها، وأنا لست وحشاً كما تعلم. ومن يدري؟ ربما تحولت علاقتنا الى شيء جدي».

فأجابه باتريك عابساً:

«اني أشك في ذلك. و... وربما أوحيت بشيء آخر لسمانثا».

«لكنك... اقصد انها لا تتجاوز السادسة عشرة...».

وعلت وجه باتريك تعابير مبهمة:

«هل هي كذلك؟ سوف ترى. في اي حال، هل يمكنني الاعتماد عليك؟».

«وبالطبع لكن، كان بامكانك ان تتصل بي هاتفياً وتطلعني على كل ذلك في وقت أكثر ملاءمة».

ابتسم باتريك ساخراً وهو يعقب:

«أحب ان ارتّب اعمالي باكراً في الصباح. والآن، سأذهب ويصبح بامكانك العودة الى رقادك. وسأتصل بك لاحقاً لاطلاعك على الترتيبات النهائية».

فقال آندرو بجفاء:

«أرجو ان تفعل ذلك».

وأنهى باتريك قهوته، ثم غادر المنزل.

وعاد باتريك الى منزله فدخل المبنى فيما أطلت السيدة تشسترتون من المطبخ لتبادره قائلة:

«هناك زائرة تنتظرك يا سيد مالوري».

وفكر باتريك للحظة اذا كان من الممكن ان تزوره سمانثا. الا ان آماله خابت:

«الآنسة هاريت تنتظرك منذ نصف ساعة تقريباً».

«حسناً يا سيدة تشسترتون. سوف أراها».

وتناولت مدبرة المنزل معطفه فيما قالت:

«الحقيقة يا سيدي اني ادخلتها الى غرفة الجلوس الصباحية».

«عظيم».

واصلح باتريك ربطة عنقه قبل ان ينطلق نحو باب الردهة. ولما دخل القاعة وجد بربارا تتأمل صفحة احدى المجلات بعصبية ورمته بنظرة متعجلة عند دخوله، بينما انتصبت متسائلة:

«حبيبي. لقد انتظرتك زمناً طويلاً، فأين كنت؟».

وعبرت الحجرة باتجاهه، فيما أجابها وهو يسير ببطء نحو النافذة:

«كنت في زيارة لآندرو. واني آسف اذ جعلتك تنتظرينني كل هذا الوقت. كان من الأفضل ان تتصلي بي لتتأكدي من وجودي هنا».

فأجابته بربارا ولم تظهر عليها علامات التأثر من برودته الظاهرة:

«أعلم ذلك يا حبيبي. الا اني رغبت في مشاهدتك. ومن الطبيعي ان لا أتصورك تخرج من البيت قبل العاشرة، اذ ليس من عادتك ان تفعل ذلك».

ابتسم ابتسامته اللطيفة وقال:

«سامحي اقتضابي وتسرّعي. فأنا مشغول بالمسرحية الجديدة يا بربارا،

ولا اجدني اختل بنفسي كثيراً».

امتلأت بربارا ندماً على الفور وهتفت بحنان:

«آه، أرجو المعذرة لوقاحتي في زيارتك دون دعوة».

فرد باتريك بعفوية:

«هراء، اني لا أعمل هذا الصباح. ولكن، هل ترغبين الآن ببعض القهوة؟».

«الحقيقة اني رفضت القهوة التي قدمتها لي السيدة تشسترتون. على اني ارغب ببعضها الآن».

اتجه باتريك صوب الباب حيث اصدر تعليماته الى مديرة المنزل. ثم عاد الى بربارا وناولها سيكارة. وسألها دون مقدمات:

«اخبريني، لماذا منعت سمانثا من الخروج مع آندرو؟».

فوجئت بربارا، الا انها استجمعت أفكارها فيما اشعلت طرف سيكارتها برلاعته. وقالت متمهلة:

«حسناً! الحقيقة انني لم أمنعها من الخروج مع آندرو. . .».

«ألم تفعلي؟ افهمني انك قلت له بأن سمانثا مرضت بعد قدومها الى انكلترا. على انك لم تذكري شيئاً من ذلك عندما تحدثنا عنها ليلة الأمس».

«كلا. . . حسناً. . . الحقيقة ان الأمر لم يتعدَّ كونه زكاماً بسيطاً. وقد قلقت عليها كثيراً، وهذا كل ما في الأمر».

«اذن، فأنت لا تعترضين على ان تكون صديقة آندرو. أليس كذلك؟».

عضت بربارا على شفتها:

«كلا. . . ولماذا اعترض؟».

افتر ثغر باتريك عن ابتسامة فاترة مليئة بالسخرية:

«لماذا تفعلين؟ السبب في طرحي لكل هذه الأسئلة هو ان شقيقتي اتصلت بي لتعلمني انها تقيم وزوجها حفلة شواء الليلة. وقد وجهنا الينا الدعوة، أنا وأنت وآندرو طبعاً. وأظن ان سمانثا ترغب في ان تكون رفيقة آندرو».

بدت الحيرة على بربارا، وتملكها الاختيار بين رغبتها الطبيعية في مرافقة باتريك، وتوجيه الدعوة الى ابنتها. كان واضحاً ان فكرة ذهاب سمانثا

معها لا تعجبها وتصوّر باتريك انه يعرف السبب. الا انها قالت ببطء:

«أظن. . . اظن ان عليّ محادثة سمانثا في الأمر. فلربما كانت لديها خططها الخاصة. ومعروف انها ستغادر مع أمي الى داقن صباح غد».

أخذ باتريك نفخة سريعة من سيكارته، وانتابته الحيرة ايضا اذ لم يفهم سبب رغبته في حماية سمانثا. فمنذ التقاها في الطائرة وهو يشعر بعجز ولهفة عنها، كما ان معرفته الطويلة ببربارا تؤكد له ان قبولها لسمانثا على انها ابنتها محفوف بالشكوك، ولا بد ان هناك سبباً. ولن يرتاح قبل ان يعرف ذلك السبب. هل يمكن ان تكون لجون كنغزلي أي علاقة بالأمر؟

وادرك انها تريد ابعاد سمانثا عنه لسبب شخصي فمن غير المعقول ان تغار بربارا من احد، حتى من سمانثا الفتاة الجميلة. انها امرأة غنية وبامكانها ارجاع سمانثا الى ايطاليا، او ارسالها الى أي مكان آخر بحيث لا تتدخل في مجرى حياتها الشخصية. وكلما فكر بالأمر، كلما ازداد اهتماماً وقلقاً.

ومعروف ان بربارا حادة الطبع، ولا يمكن التكهن بتصرفاتها عندما تغضب. لذلك، اذا ضايقت سمانثا والدتها بشكل من الأشكال، فقد تحصل مضاعفات خطيرة. عندئذ قال ببرودة:

«اتصلي بها هاتفياً، او هل اتصل أنا؟».

وقفت بربارا مرة اخرى بعد ان كانت قد جلست على أريكة منخفضة. الا ان كلماته دفعتها سريعاً الى الهاتف. وقالت:

«سأتصل بها انا، ولكني اتوقع ان تكون في الخارج، لأنها سترافق والدتي لشراء بعض الملابس».

ورفعت بربارا السماعة دون ان تنظر اليه ثانية. وتوجه باتريك الى الهاتف فيما ادارت القرص، كان عازماً الا يسمح لها بالادعاء بأن سمانثا غائبة حتى ولو كانت في المنزل.

وحدث ان ردت سمانثا على الهاتف بنفسها، ولما سمعت صوت امها قالت:

«هذه سمانثا. هل تريدين التحدث الى جدتي؟».

بللت بربارا شفتيها بلسانها وقالت:

«كلا، فأنا عند باتريك الآن يا سمانثا. وقد طلب الي ان اسألك اذا

كنت ترغبين في حضور حفلة الشواء الليلة في منزل شقيقته. انها تقيم عند شاطىء البحر، واندرو يرغب في ان تكوني رفيقته».

شهقت سمانثا، ومع ان وجود والدتها مع باتريك مالوري خفف من سعادتها بالدعوة، ادركت انها ستذهب الى أي مكان يوجد فيه باتريك، وقالت بلهجة رسمية:

«اشكرك. يسرني ان أقبل الدعوة».

«اذن، فأنت لم تقرري أي شيء مع جدتك؟».

فكرت سمانثا لحظة. ثم أجابت:

«آه، كلا. قالت جدتي انها ستنام باكراً حتى لا تتعبها الرحلة غداً».

«فهمت. حسناً، سأنقل جوابك الى السيد مالوري».

وبعد ان ردت بربارا السماعة الى مكانها، قال باتريك بجفاء:

«اظنها ترغب في الحضور».

«أجل. شكراً لك على دعوتنا».

وعادت بربارا الى مجلسها على الأريكة لتسأل باتريك:

«ما رأيك بابنتي؟».

لم يكن السؤال بسيطاً كما يظهر، الا ان باتريك لم يتردد في الاجابة وذلك لأن تردده سيثير شكوك بربارا:

«اعتقد انها فتاة جذابة. لكنها ليست في مستوى جمالك يا بربارا. فصغر جسمك يجذب الكثيرين اليك ويجعل وجود شبيه لك امراً مستحيلاً. واحسبها تشبه والدها».

«أجل. انها كذلك. فجون كان طويلاً وممتلىء الجسم ايضاً».

«أجل».

رمته بربارا بنظرة حادة وسريعة، غير ان باتريك بدا مسترخياً ومرتاحاً. فعادت تنظر الى فنجان قهوتها بينما استأنف حديثه بشغف:

«اخبريني عن زوجك. ماذا كان يعمل؟».

وضعت بربارا فنجانها على الصينية ثم اجابت:

«الحقيقة انه كان استاذاً في احدى المدارس المتدنية».

«فهمت».

ومد باتريك رجليه، واسترخى في مجلسه على احد المقاعد المنخفضة فيما

رجته بربارا:

«دعنا نتحدث عن أنفسنا».

حانت من باتريك التفاتة نحوها، فرأى فيها امرأة شديدة الحسن، جذابة... وتساءل لماذا لم تعد تؤثر عليه كالسابق. كان يعرف منذ البداية انها امرأة انانية تسعى وراء الملذات. الا ان حياته هو لم تخل من العيوب والاخطاء حتى ينشد الكمال في الآخرين. وكان من الممتع ان يصطحب بربارا لأنها نديمة ورفيقة ممتازة.. اما الآن، والآن فقط، فانه كلما اقترب منها رأى وجه سمانثا ماثلاً امام عينيه، ووجد نفسه يتمنى لو كانت سمانثا هي التي تغازله، لا لأنها اعربت عن مثل هذه الرغبة، بل لأنها تفضل اندرو عليه. وهنا وقفت بربارا وهي تتطلع اليه بغضب. ثم حملت حقيبتها قائلة:

«متى ننطلق؟».

«دعيني افكر. هل يناسبك ان ننطلق عند السادسة؟ فالطريق طويل الى سانادويش».

فالتفتت اليه بحسرة:

«اجل. هذا رائع. ولعلنا نجد وقتاً اكثر ملاءمة في هذه العشية».

وتكلف باتريك الابتسام بينما فتح لها الباب لتخرج. وهمس بعذوبة:

«ربما».

٥ـ سهرة على شاطىء النار

تملك الذعر سمانثا، وتضاربت مشاعرها بين شوق للسهرة وخوف منها لانها ليست على وفاق مع بربارا، وقضاء سهرة في صحبة بعضهما محنة شاقة. لم تمض مع والدتها سوى ساعات قليلة منذ حفلة الكوكتيل المشؤومة، وافتتح معرض ازهار تقيمه جمعية نسائية في جنوبي لندن، وتوجب على سمانثا حضور الحفلة الى جانب امها. كما دعيت الى مأدبة غداء احيتها جمعية مدراء المسارح، وزارا معاً مستشفى في ضاحية لندنية.

ولم ترافقهما اللايدي دافنبورت طبعاً، مما جعل الوقت الذي قضته المرأتان معاً محرجاً ومملاً، خصوصاً وان بربارا اخذت تبغض ابنتها بصورة مضحكة. ومع ان سمانثا لم تهتم بهذا كثيراً، الا انها وجدت نفسها تبذل جهداً كبيراً لاصلاح ذات البين. الا ان جهودها ... ضاعت سدى.

وادركت كلايد، التي ترافق بربارا في جميع تنقلاتها، حقيقة الوضع.

وطمأنت اللايدي دافنبورت حفيدتها بكل طريقة ممكنة. ووجدت سمانثا عزاءها في التفكير بانها ستنتقل قريباً الى دافن. كانت تسهر دائماً مع جدتها، في حين كانت والدتها تذهب لقضاء سهراتها في الخارج. وكثيراً ما تساءلت سمانثا عمن يرافق أمها في سهراتها الكثيرة...

ولكن، لا يزال عليها ان ترافق بربارا في سهرة اخرى حيث يقتضيها الظرف ان تراقب امها وباتريك مالوري يتصرفان تصرف العشاق. صحيح ان باتريك ذهل واغتاظ في حفلة الكوكتيل، الا ان شيئاً من ذلك لم يكن ليؤثر على اهتمامه المطلق ببربارا الآن.

وارتدت سمانثا بنطالاً لامعه سترة صوفية حمراء طويلة، رغم انها لا

تستسيغ اللون الاحمر كثيراً. غير ان رغبة جامحة في التغيير اعترتها الليلة، خصوصاً وانها لم تطق البقاء فترة اطول في لندن. وقررت ان تجعل سهرتها الاخيرة ليلة جديرة بالذكر.

وعندما دخلت سمانثا الى غرفة جدتها لتودعها، بدت السيدة العجوز متعبة وممتقعة اللون وقد استلقت في فراشها. وخاطبت الجدة حفيدتها:

«انك تبدين صغيرة السن حقاً يا عزيزتي. ومن المؤكد ان لا مجال امام بربارا للتذمر الليلة».

فابتسمت سمانثا إبتسامة عذبة:

«آمل ذلك. آه يا جدتي! ماذا يمكنني ان افعل بدونك؟ انك تجعلين الامور طبيعية وسهلة».

اجابتها اللايدي دافنبورت بثقة:

«لا شك انك ستنجحين لان الذكاء والفتنة لا ينقصانك. وجميع الذين حادثوك، وانبحت لي فرصة مقابلتهم، يؤكدون انك مرحة، مما يعني انك لم تواجهي الصعوبات».

عندئذ قهقهت سمانثا:

«احسب ان عليك حذف بربارا من القائمة. في أي حال يا حبيبتي، يجب ان اذهب الآن لان الساعة تجاوزت السادسة».

«حسناً يا عزيزتي. اتمنى لك سهرة موفقة. وارجو الا تسمحي لابنتي ان تستضعفك».

انحنت سمانثا، وقبلت وجنة جدتها. ثم انسحبت من الحجرة بهدوء قائلة:

«سأفعل ذلك».

وارتدت معطفها، ثم اخذت تتأمل وجهها في المرآة. حينئذ فتح الباب، فاستدارت مدهوشة لتلتقي وجهاً لوجه بباتريك مالوري وكانت الريح قد عبثت بشعره، فشعثته. اما عيناه، فراقتا سمانثا بمرح وتكاسل. أحست ان قلبها توقف برهة قبل ان يستأنف خفقانه المحموم فيما حياها باتريك:

«مرحباً. هل انت مستعدة؟».

ضغطت سمانثا يدها على معدتها:

«اجل. هل حضرت بمفردك؟».

«آندرو ينتظرنا في السيارة. وبقي علينا ان نصطحب بربارا».

«حسناً. هل ننطلق؟».

«طبعاً. فانا هنا لهذا الغرض».

واكتسى وجهها بحمرة الخجل اذ سخر منها ثانية. عندئذ دنا باتريك منها كثيراً حتى اصبح على بعد سنتيمترات قليلة منها. وادركت خطره المضاعف في هذه الشقة وفي هذا الجو الحالم عندما قال لها:

«هل حسبت اني كنت اتسلى بحذائك؟».

فاسرعت بالابتعاد عنه فيما رفعت شعرها عن وجهها قائلة:

«لا يهمني ما تفعل يا سيد مالوري».

تفرس باتريك بها لحظة. ثم هز كتفيه هاتفاً:

«فلننطلق».

وطغت البرودة على صوته ثانية. اما سماننا، التي تتكيف مع كل فارق في مشاعره، فعادت باردة ايضاً. لماذا صدّته بهذه الطريقة مع انه لم يكن وقحاً؟ لم تكن كلماته اكثر من مزاح رقيق ينم عن الدفء والحنان.

ولما انطلقا ليعبرا الممر، كلمته همساً:

«اني آسفة على وقاحتي».

رمقها بنظرة متفحصة ولم يقل شيئاً.

وتوقف المصعد في الطابق الارضي. وافلتت سماننا يدها من يد باتريك لتنطلق الى خارج الفندق، حيث انتظرتها سيارة فخمة. تلفتت حولها لتسأل باتريك:

«هل هذه سيارتك؟».

«اجل. هل اعجبتك؟».

«انها بديعة للغاية. اين اجلس؟».

عندئذ بلغا السيارة، فترجل آندرو من المقعد الامامي المجاور للسائق، بينما سألها باتريك مبتسماً:

«اين تحبين ان تجلسي؟ بجانبي؟».

«افعل ان شئت».

وبرزت فتنة سماننا، فاضطرب باتريك، وتلعثم. ثم قال آخر الامر:

«الافضل ان تجلسي في المقعد الخلفي مع آندرو. فبربارا تتوقع ان تجلس بقربي».

هزت سماننا كتفيها موافقة. الا انها سددت الى باتريك نظرة غريبة قبل ان تجلس.

ولما وصلوا الى ساحة بلغرايف، صعد باتريك لاصطحاب بربارا تاركاً آندرو وسماننا وحيدين في مؤخر السيارة. طوقها آندرو بذراعه:

«وضع مريح».

فابتسمت سماننا ببعض التعب:

«هو كذلك. هل يطول غيابها؟».

«بناء على معرفتي ببربارا، يتعذر علي ان اجيبك. فمن المحتمل الا تكون بربارا قد استعدت للخروج بعد».

«لكن باتريك قال اننا سننطلق عند السادسة. وها ان الساعة قد تجاوزت السادسة».

ضحك آندرو:

«انه لمن الممتع ان يلتقي المرء بحسناء لا تتقن وسيلة تجعل بها الرجال ينتظرونها».

«ولكن، لماذا؟».

«دعيني افكر. . . ان الرجل الذي ينتظر امرأة يفقد اعصابه اذ يزيده غيابها شوقاً اليها».

فصرخت سماننا بسخط:

«انك تهزأ بي».

«ليس بالضبط يا حبيبتي. على اني اعتقد ان باتريك سيستعجل بربارا الليلة. فهو لا يبدو كلفاً بها كما كان في السابق. لقد قضى اجازته في ايطاليا لكي يجدد علاقته بوالدتك التي لم تخف حقيقة مشاعرها نحوه. خصوصاً وانه لا يستعجل اتخاذ قرار يتعلق بأمر مثل أمر الزواج».

وضحك ثانية:

«في اي حال، ان باتريك لم يلزم جانب العفة خلال هذه السنوات الطويلة من عزوبيته. فقد عرف عنه طيشه في شبابه. ولا يفترض فيه الآن ان يبذل جهداً كبيراً بعد نجاحه ككاتب مسرحي. ومعروف انه ثري حتى قبل ان يشتهر، واقتصر اصدقاؤه في تلك الفترة على. . . ابناء الطبقة

العليا. هل تفهمين قصدي؟».

«كلا».

فحدق فيها آندرو ضاحكاً:

«هل تقصدين انك لا تعرفين؟ حسبت ان باربارا اخبرتك ان والده كان اميراً. أولست تعرفين شيئاً عن كيلي؟».

«وما هي كيلي؟».

«والحقيقة ان باتريك يملك أرضاً واسعة في ايرلندا، وبالتحديد في مقاطعة غالواي. ولا شك انك سمعت بغالواي».

وذهلت سمانثا، واجابته:

«ربما. ولكن، بصورة غامضة».

«لم اكن ادري ذلك. ولعل باتريك سيقتلني اذا عرف اني اخبرتك لانه يكره كل انواع العجرفة وحب الظهور والتعالي».

«وهل يزور ايرلندا كثيراً؟».

«والحقيقة ان املاكه في عهدة مدير يدعى مايكل اوهارا، انه اسم ايرلندي عريق ولا شك. ومايكل يرعى شؤون خالي كلها. اما هو فيمضي معظم وقته في لندن، رغم انه يحب ان يعيش في كيلي لانها مكان جميل تنمو فيه الاعشاب الخضراء وتكثر التلال المنحدرة، ويملأ خرير المياه وهديرها مسامعك عندما تاوين الى الفراش».

«انك لشاعر».

«كيلي تستحق مني شاعريتي لانها فردوس الشعراء. ولا ريب ان امك ستزورها، ومن الواجب ان ترافقيها».

فتطلعت اليه سمانثا فجأة:

«هذا غير محتمل. ولكن، لماذا لم تتصل بي بالهاتف؟».

«الحقيقة اني اتصلت، مرتين!».

وظهر الارتباك على وجه سمانثا:

«لا افهم شيئاً. فخبر اتصالاتك لم يصلني».

«لم تصلك! ان امك وجدتك اخبرتاني بالتوالي انك غير موجودة. فظننت انك تحاولين التخلص مني».

«التخلص منك؟».

«اجل. الحقيقة اني توصلت الى هذا الاستنتاج بعد ان ابلغتني بطرق كثيرة انك لا ترغبين في رؤيتي».

«ليس ما تقوله صحيحاً. فالحقيقة اني تألمت عندما وعدتني ان تتصل بي هاتفياً، ولم تفعل... او هكذا خيل الي. فهنا اماكن كثيرة رغبت في زيارتها وهذا لن يحدث الآن لأننا سنذهب غداً الى دافن. والله وحده يعلم كم سيطول غيابنا».

«اني اكرر اعتذاري في أي حال يا حبيبتي. والحقيقة اني اتصلت بك. ولكن، ربما لم ترق فكرة خروجك معي لأهلك».

«من الواضح ان هذه هي الحقيقة. ولكن، لماذا؟».

هز آندرو كتفيه. ثم فتح باب السيارة، واحتلت باربارا المقعد المجاور لمقعد السائق برشاقة وهي تحدثهما:

«مرحباً ايها الشابان. هنيئاً لكما على هذه العتمة. هل احسنتما التصرف؟».

وبينما تفوهت باربارا بهذه الكلمات، صعد باتريك السيارة من الجانب الآخر، فأحست سمانثا بالنار في وجهها. وتأكدت ان والدتها قالت ما قالته بقصد افهام باتريك ان سمانثا وآندرو مراهقان يلهوان. اما باتريك، فلم يلتفت اليها قبل ان يدير مفتاح السيارة، غير ان ذلك لم يخفف من انزعاج سمانثا. وما ان خرجت السيارة من لندن، حتى اخذت تنهب الارض نهباً باتجاه ساندويش. وانشغلت باربارا في حديث متواصل اجاب باتريك على بعضه بتقطع احياناً، اذ بدا انه يركز على القيادة تحت جنح الظلمة المتعاظمة فوق الطرقات. وقاد باتريك السيارة بهدوء ومهارة كما توقعت سمانثا، واحست انها كادت تغفو لأن الرحلة كانت مريحة للغاية. ولكن، قبل ان تلقي رأسها على كتف آندرو، دخلت السيارة بوابة من الحديد تقود الى منزل شقيقة باتريك.

وكانت الساعة قد قاربت الثامنة عندما توقفت الاوستن مارتن امام المنزل الكبير القديم، وكان مشيداً فوق مساحة واسعة من صخور الشاطىء، وتنفتح باحته على مسبح عائلي خاص اقيمت على ضفته حفلة الليلة. واصطفت على جانبي الطريق الخاص بضع سيارات. ولم يكد باتريك يوقف سيارته، حتى ترجلت سمانثا منها فرحة. وفور وصولهم،

اندفع عدد من الاولاد نحوهم ورموا بانفسهم متهولين على باتريك، فاخرج لهم قطع السكاكر والشوكولا من جيوب معطفه، كما رفع الطفلة الاصغر بينهم فوق كتفيه.

ووقفت بربارا تراقبه بشيء من الاشمئزاز، في حين تقدمت سمانثا منهم بشغف لانها طالما احبت الصغار، الذين لم تنعم بوجودهم منذ وصولها الى انكلترا. اما آندرو فكشر امامهم قائلاً:

«هذان الصغيران الشريران هما دي ودونالد. انهما توأم. اما باتريك فيحمل جنيفر وهذه فران، اي تصغير فرانسيسكا طبعاً. والتوأم في الثامنة من عمرهما، في حين تبلغ فران العاشرة، ولم تتعد جنيفر الخامسة. ويبقى عليك مقابلة ستيفن البالغ من العمر أربع عشرة سنة. لكنه الآن في مدرسة داخلية. وعليه، لا بد ان تؤجلي متعة لقائه المشكوك فيها».

ضحكت سمانثا وقد حسدت آندرو على كثرة اشقائه وشقيقاته. آه، لو كانت اسرتها اسرة طبيعية سعيدة، ولو كان لها مثل هؤلاء الاخوة المحبين.

وتقدم باتريك منها حاملاً جنيفر على كتفيه. ثم قال:

«ما رأيك بهؤلاء الرعاع؟».

هتفت سمانثا بدفء:

«انهم آية في الجمال والروعة. واني اغبطهم على انفتاحهم وتحررهم. ما اجمل ان تكون للمرء مثل هذه الأسرة!».

ابتسم باتريك لها برقة:

«انتظري حتى تتزوجي. عندئذ أنسى أسرتك الخاصة بحيث تنعمين بهذه المتعة فعلاً».

رفعت سمانثا بصرها اليه وقد مررت لسانها بخفة على شفتها العليا. وهمست بحلاوة:

«صحيح. واني أنوي ان انجب حشداً من الاولاد».

فهمس في اذنها:

«انا متأكد من ذلك».

واستدارت بعيداً وقد عجزت في السيطرة على مشاعرها. وامتلأ انفها برائحة البحر وعشبه، فغمرها الحنين الى ايطاليا. ولكن لم يعد لها في ايطاليا منزل ولا أب يشعرانها بالامان، وهذا ما تفتقده الآن. وتأمل التوأم

بربارا ببعض الشك، اذ اتيحت لها فرصة مقابلتها من قبل دون ان تترك فيها انطباعاً حسناً. وحسبا انها تكثر من استعمال العطر، كما اعتبرا ان من الحماقة والسخف ان ترتدي بزة ضيقة من الحرير السميك الاخضر لحضور حفلة على الشاطئ.

والتصقت فران بسمانثا فيما ساروا نحو البيت. وسألت فران سمانثا وهي تتأملها بفضول:

«هل انت صديقة آندرو؟».

اجابت سمانثا مبتسمة:

«ليس بالضبط. فانا ابنة الآنسة هارييت».

بدت الدهشة على فران:

«بربارا هارييت؟ هل تقصدين بربارا هارييت صديقة خالي باتريك؟».

«اجل. لماذا تسألين؟».

«حسناً، الحقيقة اني لم اعرف انها متزوجة».

«انها ليست كذلك الآن لأن زوجها قد توفي، بل يجب ان أقول ان والدي متوفى».

«اذا اذن لماذا تدعو نفسها الآنسة هارييت؟ من المؤكد انها السيدة. . .».

«هذا صحيح. الحقيقة انها يجب ان تكون السيدة كنغزلي. غير ان أهل المسرح يستعملون عادة اسماءهم المعروفة».

قطبت فران جبينها:

«انك لا تشبهينها البتة».

«كلا. لن اشبهها ابداً، أليس كذلك؟ اني اصغر منها سناً وأقل منها شأناً».

«ماذا يعني هذا؟».

ابتسمت سمانثا لانها لم تألف تفسير المعاني لاحد، بل العكس كان صحيحاً. ولاحت منها التفاتة الى آندرو السائر وراءها، فقال لها:

«لقد سمعت. احقاً تعرفين الجواب؟».

رفعت سمانثا حاجبيها غاضبة، واستدارت نحوه. وضغطت على معدته ضاحكة. فتظاهر آندرو انه اصيب بجرح بليغ. فركض نحوه

التوأم وقد اعجبتها اللعبة، وغدا المشهد صاخباً. فنظرت بربارا الى باتريك بكبرياء واكدت فجأة: «لا شك انك اصبت. فسمانثا تمتع نفسها. ان الاولاد دائماً يستمتعون بالحياة، أليس كذلك؟».

انزل باتريك جنيفر الى الارض مدعياً انها ثقيلة. ثم نظر الى رفيقته، وسألها متهكماً:

«هل افهم من قولك ان الكبار لا يمتعون انفسهم؟».

فاجابته بربارا:

«انك تسيء فهمي عمداً».

وتكلفت الاحتشام وهي تتسلق السلم وتدخل البيت. وكان السيد والسيدة فرايزر زوجين في العقد الخامس من عمرهما، متزوجين منذ نحو عشرين سنة. وكانت جينا، شقيقة باتريك، سيدة نحيلة القوام مديدة القامة تشبه سمانثا في بنيتها، وقد تسرب الشيب الى بعض شعرها. اما زوجها جايلز، فكان رجلاً عريض المنكبين اشقر الشعر والبشرة له كرش صغير وقد استقبل سمانثا ووالدتها استقبالاً دافئاً.

اما الضيوف الآخرون، فكانوا اثنين من الجيران مع زوجتيهما الى جانب عام وزوجته وعقيد متقاعد وابنته العازبة، اضافة الى بعض الشبان المراهقين من اصدقاء آندرو وفرانسيسكا.

وارتدى الجميع، باستثناء بربارا، ملابس عادية تتألف من البناطيل والسترات الصوفية السميكة اتقاء لنسيم البحر البارد. وحزنت سمانثا على بربارا التي ارتدت بزة فرو قصيرة قبل ان تهبط الى الرمال، لأن طبيعتها أبت عليها الا ان تظهر بمظهر يبهر الجميع حيثما ذهبت وحيثما حلّت. ولما كان ارتداء البنطال لا يناسب رجليها القصيرتين، فضلت ان تكون ملابسها نسائية بالدرجة الاولى.

وتطلعت سمانثا بدهشة الى انواع الاطعمة المختلفة. ولم تتغلب على انشداهها الا عندما ادار الاولاد آلة التسجيل ونهضت لتراقص آندرو. وشكلت الارض الرملية حلبة مثالية للرقص وسرعان ما وجدت نفسها تتغلب على مشاعرها اذ رأت الجميع يرقصون ايضاً. اما الكبار، فجلسوا على مقاعد واطئة صفّت على شكل دائرة حول النار. وتولى خادم يرتدي معطفاً ابيض تقديم الشراب. وأصم هدير البحر الآذان، فيما انتشى

الجميع من رائحة الاعشاب. وتمنّت سمانثا لو كان الجو اكثر دفئاً حتى تتمكن من السباحة. ووصل مزيد من الضيوف بينهم كين مايدسون وشلة من الفتيات. وسرعان ما اصبحت سمانثا وآندرو وسط حشد صاخب، اما الكبار من المحتفلين، فجلسوا يتسامرون ويدخنون.

ولما افلتت سمانثا من دائرة الضجيج، وجدت نفسها بجانب جينا فرايزر، شقيقة باتريك، التي ابتسمت لها بلطف وسألتها:

«هل تعتبريننا جميعاً مجانين؟ ان معظم زواري يتعجبون كيف يمكنني ان احتمل كل هؤلاء الاولاد النشيطين اليقظين، لكن عزائي الوحيد هو اني استطيع ان اعرف دوماً اذا كان احدهم مريضاً. فالمرضى يختلفون عادة عن غيرهم. كين، هل تعرفين كين؟».

«اجل. أليس هو شريك آندرو؟».

«صحيح. ان كين واصدقاءه غالباً ما يزوروننا، وتتسع مائدة اسرتنا لاثني عشر شخصاً او اكثر كل ليلة. والكثيرون يجدون حياتنا صاخبة لا تطاق».

علقت سمانثا مبتسمة:

«اني اغبطك على هذه الاسرة الرائعة. فانا لم أعرف ابداً معنى ان يكون لي اشقاء وشقيقات».

«هذا مؤكد. اخبريني، هل تحب والدتك الاولاد؟».

ارتبكت سمانثا. فامتلأت جينا ندامة، واعتذرت:

«اني آسفة يا عزيزتي. كان يجب الا اتفوه بهذه الكلمات. الا انني اتسرع دوماً. ربما تجنبت امك الاتصال بالاولاد عندما تزوروننا، ولعل مخيلتي صورت لي ذلك. ولكن، اذا كان الامر كذلك، فاني آمل الا تتزوج باتريك لانه يحب الاولاد حتى العبادة، ويتمنى، على ما اظن، ان يكون له عدد منهم. والدتي تتذمر عادة من بقائه عازباً».

ثم ضحكت، وتابعت كلامها:

«مسكين باتريك. انه رجل لطيف للغاية. وانا نضطر الى السماح للاولاد بمزيد من الحرية في حضوره لانهم يحبونه كثيراً».

وهمس صوت مبحوح في اذن سمانثا:

«يحبونه كثيراً؟».

عرفت سمانثا الصوت فوراً. وابتسمت جينا بحب:
«وكأنك لا تعرف! هل تستمتع بالسهرة؟».
قال بمرح:
«اظن ذلك. من هذه الفتاة التي ترقص كجن الليلة وترتدي معطفاً من جلد النمر؟».
«آه. لعلك تقصد انجيلا!».
وقهقهت جينا، بينما تطلعت سمانثا حولها لترى الفتاة التي تكلم عنها باتريك. وسألها:
«هل اتضحت لك الصورة؟».
«اجل، لقد اتضحت الصورة. ماذا تعمل هذه الفتاة يا سيدة فرايزر؟».
«سيدة؟ بحق السماء، نادني جينا يا عزيزتي. الجميع يفعلون ذلك. اما بالنسبة الى انجيلا، فاتصور انها راقصة في احد نوادي المدينة الليلية».
وهمس باتريك وهو يراقب تقدّمها باتجاه الشاطىء على انغام الموسيقى الصادحة:
«انها لرائعة».
فحدقت فيه سمانثا متسائلة:
«اتحسبها كذلك؟».
وانتقلت جينا لتحادث ضيفاً آخر من ضيوفها. واختلى باتريك بسمانثا خارج دائرة النار. الا انها حررت نفسها من ذراعه، واتجهت نحو البحر ولما لحق بها، اتهمته بقولها:
«ارى انك كنت تحاول اغرائي».
فسألها متملصاً من اتهامها:
«ولماذا احاول؟».
ادخلت سمانثا يديها في جيبي بنطالها، وردت عليه:
«حسناً. ليس من المحتمل ان تقع في هوى فتاة مثلي... أو... ان ترافقها».
وقلدها باتريك في ادخال يديه في جيوب بنطاله بعد ان تخلى عن معطفه وابقى على سترته الصوفية:

«ماذا؟».
حولت سمانثا نظرها عنه وقد انزعجت واضطربت. ثم صاحت:
«اصمت. لا أريد أن اسمع أي شيء اخر».
ورغم انهما خرجا من دائرة الحشد المجتمع حول النار، كان بالامكان رؤيتهما في ضوء القمر الشاحب. ووقف باتريك عند طرف الشاطىء يحدق فيها وتساءل بعذوبة:
«حسناً، وماذا تحبين ان تسمعي؟».
هزت سمانثا كتفيها:
«لا شيء. كل شيء».
«يجب ان يكون هناك جواب واحد. ما عساني ان ارد على قولك هذا؟».
ضربت سمانثا الرمال بقدمها صائحة:
«لا شيء. سنذهب غداً الى دافن».
«اعلم ذلك. اخبرتني بربارا بالامر».
فتمتمت سمانثا بصوت خائب:
«كان لا بد من ذلك».
«يا الهي! لقد ازعجتك، اليس كذلك؟ اني اكرر اعتذاري».
فصاحت سمانثا بتعب:
«لا تعاملني. اني لست طفلة».
«وهذا اعرفه ايضاً. انك في الحادية والعشرين من عمرك».
فحانت منها التفاتة مذعورة:
«كيف عرفت ذلك؟».
هز باتريك كتفيه العريضتين:
«انه امر بسيط للغاية. زرت دائرة سومرست».
«واين هذه الدائرة؟».
«في لندن طبعاً. ولعلك لا تعرفين شيئاً عنها. انها تضم مصلحة تسجيل الولادات».
«فهمت».
واستطرد باتريك متمهلاً:

«ارى انك كذبت علي، واخبرتني انك في السادسة عشرة من عمرك».

«صحيح. ولكن، كيف كان يمكنني ان أقول عكس ذلك وبربارا. آه، ما الفائدة؟».

«من السهل علي ان أتصور ان بربارا لا تريد الاعتراف بان لها ابنة في عمراك».

«اجل. هل اخبرتها بانك تعرف الحقيقة؟».

«كلا، بالطبع. ولماذا اخبرها؟».

«اذن، لماذا تخبرني انا؟».

وابتعدت سمانثا وهي تتساءل عن رأي باتريك الحقيقي فيها. اما هو، فتأملها مستغرباً كبته لنزواته، وسرعته في دعوتها الى الرجوع الى الجمهور اذ قال:

«من الخير ان نعود».

فهزت سمانثا كتفيها:

«هل انت غاضب؟».

«كلا. ولماذا اغضب؟».

«انك تبدو كذلك».

هز باتريك كتفيه فيما استدارت سمانثا متنهدة وعادت ادراجها نحو النار. وآلمها انها لم تتأكد من حقيقة مشاعرها. وانها لم تفهم موقف باتريك. ولما بلغت شلة الراقصين الشبان، ووجدت ان باتريك ابتعد عنها، تطلعت حولها. وخابت آمالها اذ رأته يقف بجانب كرسي بربارا يتحدث اليها، فيما ضحكت هي له بحيوية. عما كانا يتحدثان؟ هل اخبرها بما فعله؟ لو فعل، فان سمانثا تتمنى لو تموت.

ووقف آندرو بجانبها يتأملها باضطراب:

«هل سررت مع خالي العزيز؟».

علت الحمرة محيا سمانثا لشعورها بالذنب. واجابت:

«اجل. لماذا تسأل؟».

«آه، لا شيء».

وهز آندرو رأسه حائراً، فليس من عادة باتريك ان يتصرف بمثل هذه الطريقة مع فتاة تكاد تكون بعمر ابنته.

قال متنهداً:

«هيا نرقص. فقد اشتقت الى رقصك».

فابتسمت سمانثا:

«هل هذا صحيح؟ اني سعيدة بأن يشتاق الي احد».

وقام عدد آخر من الخدم بتقديم العشاء. وجلست سمانثا مع فتاة اخرى على اريكة، فيما وقف آندرو بقربها يتحدث اليها ويلبي رغباتها. ولم تتناول الا القليل من الطعام اذ فقدت شهيتها ووجدت صعوبة في ان تأكل شيئاً. آه لو بقي باتريك جذاباً وبعيداً في آن واحد!

٦ـ أين تنتهي اللعبة؟

رقص باتريك مع بربارا على الشاطىء الرملي. ووجد ان عينيه تتحولان باستمرار الى سمانثا التي انضمت الى شلة كين مايدسون، وسرعان ما تقبلوها لانها كانت مثلهم في شبابها وحيويتها، وبدا انها تستمتع بوقتها.

وتطلع باتريك بعيداً. انها صغيرة أياً يكن عمرها الحقيقي. والحياة لم تجربها او تصقلها بعد. ما الذي يجعله يعذب نفسه بالتفكير فيها؟ واحس ان القدر قد رتب لقاءهما في الطائرة حين كانت سمانثا معلقة بين السماء والأرض، عندئذ كانت قد رمت حياتها القديمة وراءها، واستعدت للقاء حياة جديدة تنتظرها. وكان باتريك هو الوسيط وحلقة الوصل بين جزئي وجودها. لذلك يشعر بمسؤوليته عنها. لماذا انشغل بها وهي التي لم تطلب مساعدته او مشورته؟ اما لقاءاتهما، فاتسمت بالحدة. وماذا وجد فيها حتى شغلت افكاره طول الوقت؟ صحيح ان ليس بالامكان انكار جاذبيتها، ولكن، اذا قورنت الملامح، فاننا نجد بربارا اجمل من ابنتها، وأدق بنياناً منها، وهي علاوة على ذلك لا تهرم او تشيخ.

ان الحل الوحيد هو لعنة بالنسبة اليه. اذ من السخف ان يفكر، وهو باتريك مالوري.. الذي يدين كل انواع المشاعر ما عدا نهمه للنساء، بهذه الطريقة. لم يرد ان يكون شريكاً في لعبة الحب التي تقيد الانسان وتتطلب منه الكثير. فالمرأة جزء مهم من حياته، تماماً مثل الكتابة، الا ان اقترانه بامرأة لهدف غير هدف الحصول على ربة لمنزله ومضيفة لضيوفه فكرة لم تخطر له من قبل. يجب الا يعترف بان شعوره يتعدى كونه مجرد تقدير أو اعجاب بسمانثا.

وادرك فجأة ان بربارا تتحدث اليه. فتطلع اليها وبدت رائعة الليلة حقاً. وقرر ان يستمتع بصحبتها لان شيئاً في علاقتهما لم يتبدل في الواقع. لقد قبل بربارا كما هي، واقتنع بانها لن تزعجه. ومع انها مغرورة وانانية ومهووسة احياناً، الا انه يعتبرها المرشحة الاكثر حظاً في حال اتخاذه قرارا بالزواج.

الا ان سمانثا غيّرت كل ذلك بالتأكيد. عليه ان يقترن ببربارا ويقبل سمانثا على انها ابنة زوجته، رغم ان مشاعره نحوها لم تكن مشاعر ابوية على الاطلاق. وهنا سألت بربارا:

«انها الحادية عشرة والنصف الآن، متى تتوقع ان نذهب؟».

تحول باتريك بافكاره الى مواضيع اقل خطورة:

«عندما تنتهي هذه الحفلة الراقصة».

وتكاسلت عيناه السوداوان بينما اضاف:

«هل اتعبك السهر والرقص؟».

اكتفت بربارا بطقطقة شفتيها:

«لعلني اشعر ببعض الملل».

«معي انا؟».

وضغطت بربارا على عنقه وهي تجيب:

«انني لا اشعر بالملل معك ابدا يا حبيبي».

واعترى باتريك ذعر واشمئزاز شديدان. هذه ليست الوجهة الصحيحة التي ينبغي ان تسير فيها الامور. وتمنى مخلصاً لو تنتهي علاقته ببربارا عند هذا الحد. فقد كفاه ما عانى حتى الآن. ولا بد ان يجد من الليلة فصاعداً، سبباً للابتعاد عنها، وربما سمحت له التزاماته بمغادرة لندن مدة اسبوع او عشرة ايام في الاكثر. يجب ان يزور كيلي. ان المكان رائع في هذا الفصل من السنة حيث يكثر صيد السمك والطيور.

ولن يجد في غير ايرلندا السكينة والسلام اللذين ينشدهما للتخلص من اضطراب افكاره، فضلاً عن ان جرثومة مسرحية جديدة بدأت تعشش في رأسه. وستتاح له الفرصة هناك لتدوين افكاره على الورق، بعيداً عن بربارا وسمانثا حيث يستطيع ان يرى الاشياء ثانية كما هي.

وما كادت الموسيقى تنتهي، حتى تقدم جايلز منها بخطوات عريضة

وقد ارتسم العبوس على ملامحه، وحانت منه التفاتة غريبة الى بربارا اذ قال:

«هل تسمحين يا آنسة هاربيت، اني اود ان اتحدث الى باتريك على انفراد».

هزت بربارا كتفيها واستدارت مبتعدة، فيما انتحى جايلز بباتريك، وسأله الاخير بقلق:

«ماذا جرى يا جايلز؟ هل يتعلق الأمر بالاولاد؟».

هز جايلز رأسه مغتاظاً.

«كلا، كلا. لا شيء من ذلك يا باتريك. اسمعني، لقد تلقينا مخابرة هاتفية من لندن من سيدة تدعى ايميلي، اظن انها تعمل لحساب الآنسة هاربيت».

«هذا صحيح... انها خادمتها. استأنف حديثك».

«من الواضح ان اللايدي دافنبورت اصيبت بنوبة قلبية الليلة...».

«ماذا؟».

«هذا ما اخشاه. و... وايميلي تعتقد انه من الأفضل ان تبلغ الخبر الى الآنسة هاربيت بنفسك».

«اذن، لا بد انها ماتت».

«كلا. فقد تحدثت الى الطبيب، وأعرب عن اعتقاده ان تستمر على قيد الحياة طوال هذه الليلة».

ضغط باتريك بيده على قلبه. ثم أحنى كتفيه هاتفاً:

«آه، يا الهي! اتصور ان من واجبنا ان نعود الى لندن باقصى السرعة، أليس كذلك؟».

«اجل. فالطبيب اعلمني برغبة السيدة العجوز في رؤية سمانثا، وهي ابنة الآنسة هاربيت على ما أظن، أليس كذلك؟».

«اجل. سمانثا!».

وحد باتريك بصره الى الامام وقد اكفهر وجهه. ثم بدأ يستجمع افكاره:

«اسمع. سوف اخبر بربارا. ثم ننطلق. وبعد ذهابنا توضح الامر للضيوف. كما ساخبر سمانثا بالطبع لانه من البديهي ان تحضر معنا. وقل

لأندرو ان من الخير ان يبقى هنا، لاني لا اظنه يرغب بالعودة معنا والأوضاع على ما هي الآن».

«كلا، كلا. سوف اتحدث الى اندرو، كما سأشرح الوضع لجينا. حاول ان تسرع قدر ما استطعت. اتمنى لك حظاً سعيداً يا باتريك».

واخذ باتريك يبحث عن بربارا التي وقفت بجانب آلة التسجيل تعبث بالأشرطة. وفكر لحظة كيف ستتلقى الخبر الذي سينقله اليها... منذ قليل كان يفكر انه يعاني بعض الصعوبات. غير ان هذا الحدث خلق الوفاً مؤلفة من التعقيدات الجديدة. وسمانثا، ماذا عن سمانثا الآن؟ كان من المفترض ان تعيش مع جدتها، وان تذهبا صباحاً الى دافن. ماذا سيحل بها الآن؟

انقبضت معدته. لقد اصبحت سمانثا شيئاً مهماً بالنسبة اليه، بل الشيء الأهم في حياته، وهي لا تحس ولا تدري.

واتجه ببطء صوب بربارا، التي استدارت فور سماعها وقع اقدامه قائلة: «حسناً! هل انتهى مؤتمركما؟ ولماذا انت كئيب؟ ماذا هناك؟ لا بد ان اعترف باني وجدت غرابة في تصرف جايلز».

قادها باتريك الى احد المقاعد الخشبية الطويلة بجانب طاولة العشاء الخالية الآن، وقال:

«لدي شيء مهم اخبرك به يا حبيبتي. فاجلسي لأني اريد ان انتهي من الامر بسرعة».

تراقصت عينا بربارا فرحاً:

«شيء تخبرني به؟ لماذا يا باتريك؟ يا للمتعة!».

ضاقت عينا باتريك. ولما جلست وضع احدى قدميه على المقعد، وانحنى فوقها فيما راقبته بربارا بشغف وعيناها تتلألآن كنجمتين ساطعتين. لقد تيقنت ان الامر مهم، وتضرعت الى الله ان يكون ما طالما تمنت سماعه. وما ان تلفظ بكلماته، حتى دهشت بل ذعرت، وبان على وجهها للحظة تقدمها الكبير في السن. واحست انها ستنهار على الارض بسبب الصدمة وخيبة الأمل. ثم سألت ببلادة:

«وهل ماتت؟».

«كلا. الا اني فهمت ان الطبيب لا يعتقد انها ستبقى حية الى الصباح».

وتقلصت عضلات وجه بربارا:
«آه، آه، يا باتريك، لماذا كان يجب ان يحدث ما حدث؟».
وانفجرت باكية. واخذت تنشج بصوت عال.
«علينا ان نذهب الآن. ويجب ابلاغ سمانثا والعودة الى المدينة باقصى السرعة».
تأملته بربارا بغرابة، ثم انتصبت واقفة وسألته برقة:
«ماذا يمكنني ان افعل بدونك يا ساعدي الأيمن؟».
فرد بهدوء:
«احسبني لا انفع في معالجة النساء النائحات. واني اعزيك من كل قلبي».
وعادت بربارا الى البكاء ثانية، ولكن بهدوء هذه المرة.
«لنفترض انها ماتت، ماذا افعل؟ سأشعر باقصى حالات العزلة والوحدة. ولن استطيع ان اعيش في وحدتي».
فعلّق باتريك برقاحة:
«لكنك لا تعيشين مع امك».
«صحيح. الا انها دائماً تهبّ الى نجدتي عندما احتاج اليها».
تقزز باتريك وهو يفكر، ما اعظم انانيتك ايتها المرأة! هل تفكر بربارا باحد سوى نفسها؟ ثم استأنف حديثه:
«وهناك سمانثا. انها تعيش وحيدة ايضاً».
فحدقت بربارا فيه مستفهمة:
«سمانثا فتاة مستقلة بتفكيرها مثل والدها. وهي لا تحتاجني».
فسألها باتريك بابهام:
«الا تحتاجك؟ لكنها تحتاج ان يكون بجانبها شخص واحد على الأقل».
اغمضت بربارا عينيها نصف اغماضة. وسألته:
«هل لديك اية اقتراحات؟».
تكلف باتريك ابتسامة صغيرة:
«ولماذا تكون لدي اقتراحات؟ على اية حال، من الخير ان تعلميها الآن».
واتجها الى حيث كانت شلة المراهقين ترقص على الرمال. وتطلعت

سمانثا، التي تنتبه دائماً الى وجود باتريك، لتواجههما في هذه اللحظة. وفطن باتريك الى مشاعره مجدداً. كانت رائعة في وقفتها هناك بقامتها المديدة وقدها الممشوق ونظرتها الغريبة. اصابه ألم شديد يفري الكبد، عندئذ ادرك انه يحبها. وهنا نادتها بربارا بسرعة:
«سمانثا. اننا ذاهبون».
كانت رحلة العودة الى لندن اطول رحلة عرفتها سمانثا، وقد تجمدت يأساً وقلقاً. ومع انها لم تذرف دمعة واحدة عندما تلقت خبر اصابة جدتها بنوبة قلبية، الا انها ادركت ان دموعها ستسيل فيما بعد. وشعرت بذهول وعدم تصديق، اذ روعها احتمال ان تكون السيدة العجوز المحبوبة، التي رحبت بها في انكلترا، وافهمتها انها بحاجة اليها، تواجه سكرات الموت. الا يحتمل ان يكون وصولها قد عجّل في حدوث الكارثة؟ هل يمكن ان يكون ارهاق جدتها في الاسبوع الماضي مسؤولاً عن تخاذل قلبها؟ واكتفت سمانثا بأن تكون هذه الافكار رفيقة دربها. ولم تكن بحاجة الى سماع والدتها وهي تندب حظها وتبكي جدتها بين الحين والآخر وايقنت ان بربارا تتظاهر بالحزن لتستدر عطف باتريك. ولم يتكلم باتريك منذ انطلاقهم في رحلة العودة الا قليلاً، وغرق في افكاره الخاصة. فتساءلت سمانثا عما يدور في خلده خصوصاً وانه يعرف اللايدي دافنبورت، ويعرف جسامة الكارثة.
ووصلوا الى المدينة اخيراً. فساعد بربارا على الترجل، اما سمانثا، فسبقته الى الخروج، واندفعت بسرعة الى داخل المبنى.
انتظر طبيب اللايدي دافنبورت وصول الثلاثة. وكان رجلاً نشيطاً صغير الجسم، في أواخر العقد السادس من عمره، طويل الشاربين. وبدا شديد الاضطراب بينما يذرع الشقة بعصبية. اكتفت سمانثا بنظرة واحدة الى محياه حتى تتأكد من صحة مخاوفها، فتجمدت في مكانها. بينما اغلق باتريك الباب ونظروا جميعاً الى الطبيب الذي تحدث بنبرة حزينة:
«يؤسفني ان ابلغكم وفاة اللايدي دافنبورت قبل نصف ساعة».
واسرعت بربارا باتجاه غرفة نوم والدتها، حيث خرّت على ركبتيها بجانب السرير تنتحب بحدة. وخرجت ايملي من الغرفة بعد لحظات، واغلقت الباب خلفها بعدم اكتراث. بدا على وجهها الشحوب وكأنها كانت هي ايضاً تبكي. لكنها كانت الآن هادئة ورابطة الجأش. وفرك

الطبيب ذقنه متأسفاً. ثم حوّل نظره الى باتريك، وقال ببطء:
«لم يكن بوسعي ان افعل الكثير لها. فقد بدأ قلبها يضعف منذ سنوات عديدة. وحين ابلغتني قبل اسبوعين بحضورها الى لندن، نصحتها الا ترهق نفسها. لقد كانت سيدة عجوزاً، ولم يطل الأمر كثيراً...».
وتحوّل الطبيب ببصره الى اميلي:
«هلا تفضلت بابلاغ الآنسة هاريت باني ساحضر صباحاً لاعداد شهادة الوفاة، والتدقيق في التفاصيل؟ فليس هنا شيء آخر يمكن فعله الليلة».
وتقدمت منه اميلي قائلة:
«اجل يا سيدي. شكراً لك على كل ما فعلته».
وابتسم الطبيب بشيء من الحزن:
«اشكرك. لقد كنت في شجاعتك وقوتك اشبه بالأبطال».
ولما غادر الطبيب، استدار باتريك وهو غارق في التفكير نحو سمانثا التي ظلت متسمرة في مكانها منذ دخلت الشقة، وكأنها غرست في الارض. وبدا عليها الذهول. ولما خاطبها باتريك، تطلعت اليه بعينين خضراوين حزينتين. فاقترب منها وهو يتمتم دون ان يكترث لوجود اميلي خلفها:
«سمانثا! سمانثا، ارجوك».
فقالت سمانثا وهي تهز رأسها:
«لقد توفيت. آه يا باتريك. لماذا يموت كل الذين احبّهم؟».
رد باتريك عليها بقسوة:
«كفي عن هذا الهراء. فجدتك سيدة عجوز، وعجوز جداً. ولا شك انك سمعت ما قاله الطبيب. وكان من المحتمل ان يحدث ذلك في اي وقت من الاوقات. ومن البديهي ان يكون فرحها بوصولك قد اثر عليها، الا انها حققت امنيتها برؤيتك واحضارك الى هنا. وهذا كافٍ بحد ذاته».
والتمعت عيناه حنواً:
«عليك ان تصدّقي ذلك يا سمانثا لانه الحقيقة».
فاطلقت سمانثا تنهيدة حارة:
«انا واثقة من انك على صواب. ولكن، هذا ليس عدلاً. الحقيقة ان الفرصة لم تتح لها. لقد كنا على اهبة التوجه الى دافن... غداً..

بل اليوم! والآن، انتهى كل شيء».
«ما الذي انتهى؟»
«هذه القصة بكاملها. هذا القناع. لن ابقى هنا بعد الآن، ومع بربارا».
والتمعت الصلابة في عيني باتريك:
«آه! لكنك ستبقين يا سمانثا لانك تنتمين الى هذه الاسرة. ولن يمكنك الهروب».
«الهروب؟ ممن؟ ان بربارا لا تريدني هنا».
فعلق باتريك بجفاء:
«لن اصدق هذا الكلام. فانا اتصور ان ليس امامها اي خيار وان غادرت الآن... كلا. اظن انه من الواجب ان تبقي».
«وماذا اذا لم ارغب في ذلك؟».
«لا شك ان بربارا ستجد طريقة لاجبارك. لا تخشي شيئاً».
عندئذ خرجت بربارا من غرفة والدتها وقد جفت دموعها وامتقع لونها بشكل مؤثر. وهتفت:
«آه يا باتريك! ارجو المعذرة. لقد نسيت نفسي كلياً. وانت يا سمانثا! ابنتها الحبيبة! هل يمكننا ان نتحمل المأساة معاً؟».
لم تتحمل سمانثا ذلك، بل شعرت برغبة في التقيؤ. ونقلت نظرها بينهما. ثم اطلقت صرخة مكتومة، واندفعت عبر الردهة باتجاه غرفتها. هزت بربارا كتفيها، وتطلعت الى باتريك وكأنها مرتبكة. وتنهدت صارخة:
«يا الهي! ان الفتاة ساخطة، وان الامور ستتعقد».
«ولماذا تتعقد؟».
«اشعر ان سمانثا ليست طفلة سهلة الانقياد».
«طفلة؟ انها ليست طفلة».
ضاقت عينا بربارا فيما خاطبته باستفزاز:
«انها لم تتجاوز السادسة عشرة من عمرها».
تجاهل باتريك معرفته بالسر فلا الزمان ولا المكان يسمحان باثارة هذا الموضوع. وقال:

وعلي ان اذهب. وسأرجع صباحاً لأرى اذا كان بامكاني مساعدتك في شيء. وفي أي حال، فان الطبيب وعد بان يرجع في الصباح ليرتب الأمور ويدقق التفاصيل. وأظن ان الصحف ستنشر القصة عندئذ».

نظرت اليه بربارا متأملة:

«احتمال أكيد. حسناً يا باتريك. اني اشكرك كثيراً».

ثم استأنفت حديثها بشيء من البرودة:

«يبدو اني اذكرك بالواقع في كل مرة التقيك هذه الأيام».

فابتسم باتريك لها متذمرا:

«انك تفعلين، اذن! لا بد ان يكون طموحي اعظم من ذلك.

والآن، تصبحين على خير يا بربارا».

ولما اغلق الباب خلفه، اشعلت بربارا سيكارة باصابع مرتجفة، واعتراها غضب عارم. غضب مكبوت. لقد اظهرت كثيراً من اللين مع باتريك، الا انه لم يرد ان يفطن لذلك. فلماذا؟ لماذا؟ لماذا؟ وذرعت الردهة ذهاباً واياباً بغضب.

كان من واجبها ان تفعل اشياء كثيرة. والحقيقة ان مشهد باتريك وهو يقف بجانب سمانثا ناظراً اليها بعينين قلقتين تنمّان عن الرقة، قوّض كل مشاريعها. وسمانثا! انه لأمر محزن. لقد ظنها ابنة ست عشرة سنة. ولو كانت كذلك، لكان هو بمثابة والدها. الا يملك ذرة من الكبرياء؟

هل تقف مكتوفة اليدين تتفرج على الرجل الذي اخلصت له يتصرف تصرفاً احمق مع ابنتها؟ كلا، انها لن تسمح بحدوث مثل هذا الأمر. لا بد من فعل شيء ما. ماذا يمكنها ان تفعل؟

كان لا بد من دفن اللايدي دافنبورت في دافن لانها اعربت عن رغبتها في ان ترقد في مقبرة العائلة هناك. وهكذا رأت سمانثا بيت المستقبل في اوضاع تختلف كثيراً عن تلك التي توقعتها. واصابها الدوار منذ ليلة وفاة جدتها المشؤومة. وعاودها نفس الشعور عند غياب والدها. ومع انها لم تعرف جدتها مدة طويلة، فان علاقتها كانت حميمة. والآن، لم تعد تشعر بالامان الذي انتزع منها فجأة، الا في حضور باتريك.

واتسم سلوك بربارا تجاه ابنتها بالبرودة والتحفظ. ولم تظهر الحنان والانفتاح الا امام الصحفيين الذين حضروا لمقابلة السيدتين واخذ الصور التذكارية لها. وروعت الشهرة سمانثا التي طالما اعتبرت حادث الوفاة في اسرتها امراً عائلياً بحتاً. كما انها اشمأزت من ارتداء بربارا ثياب الحداد السوداء، التي زادت شقرتها بروزاً، وتأديتها دور الابنة المهجورة المتعلقة بسمانثا طلباً للمساندة. وتكاثرت زيارات مارتن برايور، المعلّق المعروف. وكان على سمانثا ان تبتعد عن دائرة الضوء قدر المستطاع. فيما حاول برايور جهده ان يدخلها في كل مقال يكتبه اذ ادهشته رباطة جأشها التي لا تظهر في اولاد بعمرها. وتساءلت سمانثا، وقد فطنت الى الامر، متى سيزور برايور دائرة تسجيل الولادات كما فعل باتريك، ثم يرجع ليواجه بربارا بالحقائق المجردة؟ وخشيت ان تفكر بما يحدث لو علمت بربارا ان باتريك يعرف الحقيقة.

وصلت سمانثا الى مسكن دافن في سيارة الرولز رويس بصحبة باترك قبل الدفن بيوم كامل. اما بربارا، فكانت قد سبقتها الى المكان للقيام بالترتيبات اللازمة، ولذلك لم يكن بامكانها ان ترى ابنتها كثيراً.

وبعد تناولها العشاء بمفردها، آوت الى سرير عريض كاد يتسع لعشرة اشخاص معها. ووجدت سمانثا صعوبة مضاعفة في الخلود الى النوم لان الفراش الوثير المحشو بالريش وفر لها دفئاً شديداً لم تألفه. واستيقظت مع خيوط الفجر الاولى قبل صياح الديك. وازاحت الستائر حتى تسمح للضوء الناعم بالتسرب من الخارج. ثم تأملت مشهداً طبيعياً وادعاً أعاد الهدوء الى افكارها المضطربة. وامكن لسمانثا ان تلمح بين المروج الخضراء روضة ازهار احيطت بسياج عال. كما شاهدت بركة صغيرة، فتساءلت اذا كانت اسماك الذهب الصغيرة تستطيع ان تسبح في اعماقها الجليدية. وقضت هذا الصباح مزهوة باستطلاع الاراضي المحيطة بالمنزل. فوجدت اصطبلات للخيول كما قالت جدتها، والرحها جوادان لامساها بأنفيهما طلباً للسكر. وقدم لها سائس الخيل العجوز بعض السكر لتطعمها، وكان هناك بغل صغير بني اللون لحق بسمانثا، وتأكدت من محبتها له. ولما اخبرها صاحب الاصطبلات انه لم يطلق عليه اسماً بعد، امضت بضع دقائق تختار له اسماً بقصد السلوى.

كانت مراسم الدفن ستتم عند الساعة الحادية عشرة. ولما عادت سمانثا لتناول فطورها، وجدت بربارا ترشف بعض القهوة المرة وهي تدخن،

ولشد ما سرت حين حان الوقت للاستعداد. وايقظ ارتداء ملابس الحداد فيها العزم على الا تبكي علناً.

حضر باتريك من لندن بعد العاشرة بقليل. ولا شك انه نهض أبكر بكثير من عادته. وبدا متأنقاً في بزته الصباحية القاتمة وربطة عنقه السوداء. وكاد قلب سمانثا يضيع من صدرها اذ رأته. لقد اضحى حبيباً بالنسبة اليها، وحبيباً جداً. واحست انها وحيدة في العالم مرة اخرى، خصوصاً وانه لم يكن بمقدورها الاعتماد على بربارا، التي اوضحت لها بجلاء في الايام القليلة الماضية، ان دوافعها لادخالها دائرة الضوء معها بدأت تتلاشى بسرعة، وانها كلما اسرعت في العودة الى حيث جاءت، كلما فرحت بها واحبتها. وكلمها باتريك بعطف: «مرحباً. هل انت بخير؟».

فحدقت فيه وقد ضاقت نفسها. ثم همست:

«اني. . . اني بخير الآن».

«اين أمك؟».

«أحسب انها في قاعة الجلوس مع متعهدي الطعام الذين يعدون الغداء. . .».

اطرق باتريك، ثم سألها:

«وماذا ستفعلين بعد ذلك؟».

حنت سمانثا رأسها لتخفي ارتباكها:

«لست أدري».

ودنا باتريك منها ثانية وهمس في اذنها:

«الا تدرين؟ الا ترغبين ان تعودي معي الى لندن؟».

رفعت بصرها اليه وقد بان الذهول في عينيها. عندئذ خرجت بربارا من قاعة الجلوس الى البهو وقد ارتدت ملابسها السوداء. وابتعدت سمانثا عن باتريك فوراً، فلم يتح لها مجال الرد على اسئلته. اما بربارا فدنت منه هاتفة:

«حبيبي، ها انت قد حضرت. واحسبني قد سمعت صوت السيارة منذ دقائق».

«صحيح يا بربارا. كنت اتحدث الى سمانثا. . . هل كل شيء على ما يرام؟».

ثم سارا معاً يتحدثان، فيما حاولت سمانثا استجماع افكارها. ماذا قصد باتريك بجملته الاخيرة؟ وماذا عني؟

وتملكتها حيرة مطلقة لان لقاءها الاخير بباتريك اكد لها امراً واحداً، هو انشداده اليها. لكنها لم تستطع ان تقرر اذا كان ذلك الانشداد مؤقتاً او دائماً، ولعله يستمتع بمداعبة الزهرة المنسية في الحديقة. لكنه عند اتخاذ القرار، لا بد ان يختار الزهرة الانضر، والتي اشتد عليها الاقبال. ويهمل ابنة صديقته القديمة الجاهلة والساذجة. والاعجاب لا يمكن ان يسمى حباً. اذن، لماذا دعاها لمرافقته الى لندن؟

واصابتها الرجفة لان ما خطر لها لا يمكن تجاهله. هل قصد ان تغادر دافن معه؟ وانطوت على نفسها برهة فيما اغمضت عينيها. وطرح عليها عقلها اسئلة كثيرة. اليس من الممتع ان يتمنى الحصول عليها بهذه الطريقة، لاشباع رغباته ولاختبار نشوة التملك ولو لفترة قصيرة؟ أوليس الحصول على كسرة خبز افضل من عدم الحصول على شيء؟ ايام معدودة في الفردوس.

«ارجو المعذرة. الست انت الآنسة كنغزلي؟».

فتحت سمانثا عينيها وقد احمرت خجلاً واحست بحماقتها، وكأن افكارها قد كتبت على صفحة وجهها بحيث يقرأها الجميع. ووقف امامها رجل متقدم في السن يرتدي بزة صباحية قاتمة. وكان رأسه اعلى من مستوى ذقنها بقليل. فاجابته بارتباك:

«اجل. اني سمانثا كنغزلي».

«ظننت ذلك. اني آسف اذ قطعت عليك تفكيرك واحلامك».

تعاظمت حيرة سمانثا وخجلها كثيراً وقالت:

«ارجوك. . .».

فابتسم الرجل لها:

«لا. . . لا تعتذري يا عزيزتي. . . على ان اقدم لك نفسي. اسمي بولام، جوزيف بولام محامي جدتك ومستشارها القانوني».

فبادرته سمانثا الابتسام فيما تضاءلت حيرتها:

«آه، اجل. كيف حالك يا سيدي؟ هل تبحث عن والدتي؟».

«ليس بالضرورة. لقد تمنيت ان اتحدث معك قليلاً حتى تتسنى لي

معرفتك على نحو افضل. ولا يزال امامنا متسع من الوقت حتى تتجه الى الكنيسة. لقد حضرت جدتك الى مكتبي بينما كانت في لندن واخبرتني الكثير عنك».

خفضت سمانثا رأسها:

«كم تمنيت لو اني عرفتها مدة أطول».

«حسناً. انا متأكد انها تمنت ذلك ايضاً يا عزيزتي».

ودخلا غرفة الجلوس الصباحية معاً حيث غطيت قطع الاثاث بشراشف بيضاء كما في معظم الغرف. غير ان سمانثا رفعت الشراشف عن مقعدين، ثم دعت ضيفها الى الجلوس. ولما ارتاحا، سألها السيد بولام:

«اخبريني، هل لديك اي خطط بشأن مستقبلك؟».

تنهدت سمانثا:

«الحقيقة، كلا. فانا... حسناً... اني لا اريد التعدّي على حياة والدي الخاصة. فهي سيدة كثيرة... المشاغل».

«بربارا كانت دائماً... كثيرة المشاغل».

وتردد السيد بولام قبل ان ينطق بكلماته الاخيرة. ثم اضاف:

«علمت انها ستبدأ بعرض مسرحية في شهر كانون الاول (يناير) المقبل».

«اجل. واني اعتقد ان السيد مالوري، باتريك مالوري، هو الذي كتب المسرحية الجديدة».

«باتريك مالوري! التقيت هذا الرجل من قبل. هل هو هنا اليوم؟».

«اجل. والحقيقة انه يجلس مع امي الآن».

وسعل السيد بولام بشكل مرتبك:

«هل يحتمل ان تتزوج والدتك ثانية؟».

بلعت سمانثا ريقها بصعوبة:

«تقصد ان تتزوج بالسيد مالوري طبعاً؟».

«حسناً. اذكر ان جدتك تصورت الامر معقولاً».

هزت سمانثا كتفيها النحيلتين:

«اجل. لكني لا استطيع الجزم باي شيء، لان بربارا لم تحدثني عنه».

«واذا تزوجا، هل ترغبين في الاقامة معهما؟».

«آه! كلا!».

ظهرت الحدة على سمانثا. هي تقيم مع باتريك ووالدتها! وهي تعرف انهما زوج وزوجة! ان ذلك مؤلم وخطر! واطرق السيد بولام وربت على ركبتها:

«هذا ممتع. لا تقلقي يا عزيزتي. فاني واثق ان لا داع لخوفك».

«خوفي؟».

رد عليها السيد بولام ببساطة:

«انه ضرب من المبالغة».

ثم نظر الى ساعته:

«احسب ان علينا الانضمام الى الآخرين لان الموعد اقترب».

وحضر الى جانب بربارا وباتريك وسمانثا والسيد بولام عدد من اصدقاء اللايدي دافنبورت القدامى الذين سكنوا في الحي نفسه. ورافقت ايميلي، خادمة اللايدي دافنبورت ومرافقتها، السيد بولام وباتريك في سيارة الاخير، في حين احضرت سيارات عديدة لنقل باقي الحاضرين.

لم تسمح سمانثا لنفسها بالبكاء علناً، بينما لم تنقطع بربارا عن البكاء تقريباً. وغالباً ما وجدت باتريك بجانبها، فكان لها عزاء ومواساة. وبعد تأدية مراسم الدفن القصيرة، ووري رفات اللايدي دافنبورت جدث الرحمة في مدفن العائلة.

ولما كان وكيل اعمال بربارا، تشارلز باريت، قد حضر من لندن، فقد ارجعها في سيارته الى المنزل. لذلك قبلت سمانثا دعوة باتريك لها باستعمال سيارته في طريق العودة. وراقبها باتريك وهي تستقل السيارة بعينين دافئتين ملؤهما الحنو. الا ان سمانثا اجبرت نفسها على عدم لمس او طلب مساعدته وحمايته. ولم تتطلع اليه بعد ذلك، بل اجبرت نفسها على التحديق خارج النافذة. ولما ادار باتريك السيارة وعاد بها صوب البيت قال:

«تعلمين انك في مأمن معي».

قلبت سمانثا قفازيها الموضوعين في حضنها هاتفة:

«في مأمن؟ اني لا افهم قصدك».

«الا تفهمين؟ حسناً يا عزيزتي. انك تتصرفين معي وكاني وغد ينوي

انتهاككِ».

«لا تكن فظاً في كلامك».

«هذه ليست فظاظة، بل الحقيقة. ماذا ظننت اني قصدت من محادثتنا القصيرة في البهو؟».

«اني لا... لا استطيع ان افهم شيئاً».

فعلّق بفظاظة:

«اذا صح حكمي على تعابير وجهك، استطيع القول انك توقعت اموراً كثيرة. يا الهي! قولي لي يا سمانثا، ماذا تعتبرين؟».

اطبقت سمانثا شفتيها لحظة. ثم قالت:

«لا.. لا اظن ان رأيي مهم. لكني اود ان اعرف، ماذا قصدت من دعوتك لي باصطحابك الى لندن؟».

قبض باتريك على مقود السيارة باصابع متشنجة:

«هل تسأليني ذلك؟».

«ولماذا لا اسألك؟ كيف يمكنني ان اعرف ماذا يدور في رأسك؟».

وبدا باتريك مغتاظاً الى اقصى الحدود، فيما احست سمانثا برعشة. واوقف السيارة امام باب المنزل الامامي. ثم تطلع اليها بعينين يتطاير منهما الشرر. وقال ببرودة:

«تفضلي بالخروج».

اطاعت سمانثا امره، والقت عليه نظرة اخرى فيما ظل قابعاً في مقعده. وسارت باتجاه الباب برجلين مرتجفتين. ماذا فعلت الآن؟ واين ستنتهي اللعبة؟

٧- الشجار الأخير

بعد الغداء، طلب السيد بولام من بربارا وسمانثا وايميلي مرافقته الى المكتبة. ولما كانت سمانثا لا تعرف ان وصية الميت تقرأ بعد دفنه عادة، استفسرت عن سبب دعوتها. والحقيقة انها لم تستطع ان تفهم السر الذي سيطلعها عليه السيد بولام، والذي لم يستطع البوح به في محادثتهما الصباحية. وكلمها الآن بصورة جدية:

«انك انت وامك وايميلي المستفيدون الثلاثة من وصية جدتك. الم تحضري قراءة وصية قبل اليوم؟».

فهزت سمانثا رأسها سلباً. واضاف السيد بولام:

«هيا بنا اذن. حتى لا نضيع مزيداً من الوقت».

اتسمت مقدمة الوصية بالقصر والوضوح. وورد اسم ايميلي اولاً. فاوصي لها بمبلغ الف جنيه علاوة على دخل سنوي مقداره خمسمئة جنيه الى حين وفاتها، «حتى تصبح مستقلة» كما جاء في وصية اللايدي دافنبورت حرفياً. ولشد ما ابتهجت ايميلي واخذت تنقب في حقيبة يدها عن منديل تمسح به دموع التأثر، في حين ابتسمت لها سمانثا. اما بربارا، فلم تعط اي دليل على شعورها باستثناء نظرة استعلاء، سددتها الى ايميلي.

وكم كانت دهشة بربارا عظيمة لما جاء اسمها ثانياً على قائمة الورثة. فانحنت الى الامام وضاقت عيناها. وتساءلت سمانثا عما رأى السيد بولام، في فضول أمها المتزايد. «الى ابنتي بربارا، التي اورثتها الكثير، اوصي بميراث مقداره عشرة آلاف جنيه وظف معظمها في شراء الأسهم...».

واطلقت سمانثا صيحة مخنوقة، فيما استطرد السيد بولام يقرأ:
«. . . ولها جواهر الاسرة التي تدرّ عليها مبالغ ضخمة ان هي احتاجت ان تبيع ايّاً منها. واستثني من تلك الجواهر عقد لآليء والدتي اذ ينبغي ان تقدم الى سمانثا في يوم عرسها».
نهضت بربارا من مقعدها، وحدقت في المحامي بذهول فيما صاحت في وجهه ساخطة:
«وهل هذا كل شيء؟».
تفرس السيد بولام بالوصية ثم قال:
«اعتقد ذلك. اجل يا آنسة هاريبت. هذا كل شيء يتعلق بك».
فصاحت باستياء وضعف:
«ولكن هذا مضحك، ولا يمكن ان يكون صحيحاً. فماذا عن دافن . . . الاملاك . . . هذا المنزل؟».
اجابها السيد بولام وهو ينظر اليها بقسوة:
«اذا كلفت نفسك عناء الانتظار بضع لحظات، تابعت قراءة الوصية. هل يمكنني استئناف عملي؟».
خفضت بربارا رأسها بعنف، وتراجعت الى الوراء ثم اشعلت سيكارة باصابع مرتجفة. وانتظرت قراءة البند التالي.
اما سمانثا، فارتجفت. ماذا يعني كل هذا؟ وهل يمكن بعد ما قالته لها جدتها ان لا تكون بربارا ممسكة بكل اطراف اللعبة؟
ورمق السيد بولام بربارا بنظرة استهجان اخرى قبل ان يستأنف قراءة الوثيقة:
«واخيراً، اوصي الى حفيدتي سمانثا ببقية أملاكي بما فيها مسكن دافن وكل الاراضي المحيطة به».
عندئذ شهقت سمانثا، لا شك انها تحلم! وتابع السيد بولام قراءته:
«ولقد اوصيت بالبيت لسمانثا علاوة على دخل يساعدها على صيانته، لأن ليس لها منزل تسكنه بعد وفاة والدها. واذا حدث ان تزوجت بربارا ثانية، فاني واثقة انها تفضل لابنتها ان تكون مستقلة عنها».
وهتفت بربارا بحنق وقد انتصبت واقفة:
«لا شك انها جنت. لا يمكن ان اقبل بذلك. فهي لم تعرف ان سمانثا

قادمة الا في الاسابيع القليلة الماضية».
رد السيد بولام على ادعاءاتها:
«اني اوافقك في جزء من اقوالك على الاقل. صحيح انها لم تعرف ان سمانثا ستحضر الى هنا. لكنها عندما عرفت، حضرت الي اثناء وجودها في لندن ولم تغير الوصية لصالح الآنسة كنغزلي الا قبل وفاتها ببضعة ايام».
سحقت بربارا سيكارتها بقسوة. لقد خاضت معركة خاسرة مع نفسها، في حين عجزت سمانثا المذهولة عن المشاركة في الحديث وحانت التفاتة من السيد بولام باتجاه سمانثا، فيما تجاهل بربارا وانفعالاتها لحظة. ثم اخرج مظروفاً من حقيبة اوراقه قائلاً:
«ان لك في عهدتي رسالة يا عزيزتي، طلبت الي جدتك اعطاءك اياها بعد وفاتها. واغلب الظن ان فيها التفسير لما حدث».
وتذمرت بربارا بوقاحة وصوت عال:
«ماذا؟ هل تحتاج الى تحليل وتفسير؟ من الذي يحتاج الى تفسير لكل ما حدث؟ اني اعتبر كل ما حدث اغرب ضروب الخداع والمكر».
وكلمها السيد بولام برقة:
«اني لا احمل لك رسالة لسوء الحظ. والى ذلك يا آنسة هاريبت، ارجو الا يزعجك قولي انك تسلمت ما يكفي من الميراث. وكثيراً ما اخبرتني والدتك عن كرهك لكل ما يتعلق بدافن».
فأجابته بربارا وهي تفكر انها تخلت عن سلوك السيدات وتصرفهن اللائق: «ولا يزعجني قولك ابداً، لكنني اعتبر ما حدث مروعاً. فليس من العدل ان تتحكم هذه المخلوقة حياتنا وتغتصب . . .».
واشارت بيدها الى سمانثا. عندئذ تكلمت ايملي للمرة الاولى:
«هذه المخلوقة، كما تصفينها بوقاحة، ليست سوى ابنتك».
فصاحت بربارا في وجه ايملي وهي تصب عليها جام غضبها:
«اصمتي ايتها العجوز المحبة للخصام، يا من حاولت الالتفاف حول والدتي بكلماتك المثيرة، لا تحسبي اني غافلة عما فعلت . . .».
انتصب السيد بولام واقفاً وقد رفع يده:
«كفى! انك تنسين نفسك يا آنسة هاريبت. وكلماتك تشير الى فضيحة واتهامات ارجو ان تحذري منها. فلو شاءت الآنسة ايملي ان . . .».

ازداد وجه بربارا قبحاً:

«اصمتوا جميعاً. اني اريد مقاومة هذا الوضع، ولا تظنوا اني ساتوقف عند هذا الحد».

فاخبرها السيد بولام وقد غضب هو الآن:

«اذا فعلت ذلك، فستثيرين حولك عاصفة كبيرة من الضجيج. وستجعلك الصحافة هدفاً لاشاعاتها، خصوصاً وان القضية تتركز حول اعتراض ام على وصية لان ابنتها هي المستفيدة الاولى منها».

ارتجفت بربارا وقد شل الغضب تفكيرها. وصاحت:

«انكم جميعاً تضايقونني».

كبت السيد بولام ثورته وخاطبها:

«ارجوك، اصمتي. اما انت يا سمانثا، فهاك رسالتك يا عزيزتي».

«اشكرك».

نجحت سمانثا في نطق هذه الكلمة واخذ الرسالة من السيد بولام. الا انها فتحت الرسالة باصابع مرتجفة، بينما راقبتها امها وكأنها تنوي ان تنتزعها من يدها وتطلع على محتواها. وجاء في الخطاب ما يلي:

«عزيزتي سمانثا:

علي اولاً ان اطلب المعذرة منك للاكاذيب التي لفقتها لك عند وصولك الى انكلترا. فلقد كان من الضروري ان تبقي هنا بناء على شروط بربارا. ولم اجد وسيلة اخرى لاقناعك سوى ان اضع مستقبلي بين يديك.

لقد اثبت انك ابنة والدك في هذه الناحية. واني احببتك من اجل ذلك. لكني اقدم لك الآن منزلاً لم تتوقعي ان تملكيه آملة ان يعوض لك عن بعض المعاملة السيئة التي لقيتها من اسرتي.

لا تسمحي لبربارا ان تخيفك. واني واثقة انها ستحاول ذلك عندما تطلع على وصيتي. لانها وان لم ترغب يوماً في السكن في دافن، فانها تعرف قيمته الشرائية.

والآن، انت تمسكين بالاوراق. فدافن لك، ولا يمكن لأحد انتزاعها منك. وانك الآن وريثة شرعية ولا حاجة بك للادخار بعد الآن. وبوسعك زيارة ايطاليا العزيزة عليك متى شئت، والعودة الى منزلك الخاص في هذه البلاد.

وربما التقيت ذات يوم رجلاً يشاركك حياتك. عندئذ لعلك تحبين ان تقيمي بعض السنة في دافن. وانه من دواعي سعادتي ان اتصور اصوات الاولاد تملأ جنبات المنزل القديم، وجميع الغرف تفتح بدل ان تكون متاحف مقفلة».

قلبت سمانثا الصفحة بينما ذرعت بربارا الغرفة وقالت: «حسناً! ماذا تحرك؟ لا شك عندي ان كلامها عاطفي يثير الاحاسيس».

تطلعت سمانثا اليها وقد تملكت بعض المناعة ضدها وضد انتقاداتها اللاذعة. وقالت:

«انه عاطفي فعلاً. الا انه لا يثير اللعاب. انه رائع وساحتفظ به الى آخر عمري».

التقطت بربارا حقيبة يدها، وتوجهت الى السيد بولام:

«يخيل الي ان بامكاني الذهاب الآن».

«لا ارى مانعاً من ذلك».

والحقيقة ان السيد بولام تمنى لو تذهب. سارت بربارا نحو الباب. ثم التفتت نحو الثلاثة بغضب وحقد: «انكم باجمعكم تضايقونني».

ونهضت سمانثا واتجهت نحو ايميلي مطيبة خاطرها:

«لا تكترثي لما قالته والدتي يا ايميلي. فانها كانت في حالة ارهاق واهتياج وخيبة امل».

ردت ايميلي مبتسمة:

«لا عليك يا آنسة سمانثا. واني آسفة عليك انت».

«لا تخافي علي. فاني احسن تدبير اموري».

«حسناً يا آنستي، سوف اراك اذن».

ولما ذهبت ايميلي، وبدأ السيد بولام يجمع اوراقه، عادت سمانثا الى التفكير بان كلمات والدتها لم تفاجئها قدر ما فاجأتها وصية جدتها. فتصرفات بربارا لم تعد تدهشها، رغم ان الغضب والحقد عندما يظهران على وجهها يجفلانها احياناً واحست سمانثا ان عينيها اغرورقتا بالدموع، الا انها كبتت دموعها. وراقبها السيد بولام قبل ان يقول:

«تذكري اني قلت لك ان لا داع لخوفك وقلقك».

ابتسمت سمانثا للرجل الكهل:

«هل يعني ذلك ان بامكاني البقاء هنا اذا احببت؟».

«بالطبع. فهذا المنزل منزلك، والاراضي اراضيك بكاملها، وليس بامكان احد انتزاعها منك. ولا مبرر لاضطرابك، لأن امك لا تجرؤ على المخاطرة بالاعتراض على الوصية».

«اني اعتقد انها امرأة فاشلة ويائسة».

عض السيد بولام شفته:

«وكذلك انا. انها تعاني من يأس وارهاق كليين. اما الآن، فاظن ان علي العودة الى المدينة».

«حسناً. ايزعجك ان ابقى هنا بعض الوقت؟ فان لدي كثيراً من الامور يجب ان افكر بها».

«طبعاً. سوف اتصل بك خلال الاسبوع القادم لاشرح لك بعض التفاصيل».

وحين خرج السيد بولام اعادت سمانثا قراءة الرسالة من جديد، محاولة ان تفهم المسؤولية الجديدة التي القيت على كاهلها. الا انها لم تستطع ان تفهم، وهي التي لم تعرف يوماً معنى ان تملك نقوداً تفيض عن حاجتها...

وتساءلت عما سيقوله باتريك. هل ادرك انها لم ترد ان تكون وقحة معه، بل حاولت ببساطتها ان تفهم لغزه؟

وتمنت لو يبقى لتناول العشاء. لقد تأكدت ان بربارا ستدعوه للبقاء، ولعلها عندئذ تجد فرصة للتحدث اليه بمفردها. وتساءلت عن موعد رجوع بربارا الى لندن. هل ترغب في الاقامة هنا بضعة أيام؟ اما بالنسبة اليها هي، فقد قررت البقاء هنا مدة من الزمن، ليتسنى لها الاسترخاء، الامر الذي لم يتوافر لها منذ وصولها الى لندن.

ولما خرجت من المكتبة، وجدت المكان شبه مهجور الا من الكولونيل ونش فسألته بدهشة:

«اين ذهب الجميع؟».

انتصب الكولونيل ونش واقفاً، وكلمها بصوته الهادئ:

«الحقيقة يا عزيزتي ان جميع الخدم عادوا الى واجباتهم. اما امك، فقد صعدت الى الطابق العلوي على ما اظن، في حين غادر السيد مالوري الى لندن منذ حوالى ربع ساعة. اما المحامي... بولام... فقد ذهب معه».

احست سمانثا ان الارض مادت تحت قدميها. ورددت بحماقة:

«السيد مالوري ذهب؟».

«اجل يا آنستي. والحقيقة انه انطلق بعد ان تحدث قليلاً مع والدتك التي عجزت عن اقناعه بالبقاء».

اطلقت سمانثا تنهيدة حارة:

«يا الهي!».

وحانت التفاتة رقيقة من الكولونيل تجاهها:

«هل هناك شيء يضايقك؟ اتوقع ان تكوني قد ارهقت نفسك اليوم».

فصعدت الى غرفتها. ولم تدر ماذا ستفعل، فالمساء لم يقترب بعد. ولما لم تكن تعرف نوايا والدتها، عجزت عن التفكير بما تعمل. لماذا لم تغادر بربارا مع باتريك؟ من المؤكد انها كانت ترغب بمرافقته اذا كان يقصد المدينة.

واشعلت سيكارة ثم جلست في مقعد النافذة. لا بد ان تتصل بباتريك الليلة. ولكن، ان فعلت، ماذا تقول؟ وشعرت بعجزها عن تبرئة نفسها اذ لم تر او تحس بانفعالاته المرتسمة على محياه، وربما كانت على خطأ ايضاً. فمن المحتمل ان يكون قد غضب منها لسبب آخر.

وسمعت طرقاً خفيفاً على الباب. ثم دخلت اميلي، وابتسمت للفتاة قائلة:

«لماذا تجلسين هنا يا آنسة سمانثا وتضيعين وقتك بالاكتئاب؟».

تنهدت سمانثا:

«آه يا اميلي. يخيل الي ان كل شيء قد انتهى».

«لكنني واثقة من قدرتك على قهر الصعاب».

«اني اشاطرك الرأي. والامر لا يتعدى كونه ضياعاً وعدم دراية بما سأفعله. ماذا كنت تفعلين؟ ها انذا محاطة بمشاكلي، ولست اعرف من اين ابدأ بتنظيم حياتي التي طالما نظمها لي الآخرون من والدي الى جدتي. واخشى ما اخشاه ان اعيش هذه الفترة من حياتي دون هدف».

فابتسمت لها اميلي:

«ستنقضي هذه الفترة، وهذا امر طبيعي للغاية. فلا تحاولي استعجال الامور لأن امامك متسعاً كبيراً من الوقت. وارغب ان اعلمك بأن هناك بعض الحديث داخل المطبخ عما تنوين فعله بالمنزل وبالخدم. وكما تعلمين،

توقع الجميع ان ينتقل الميراث الى الآنسة بربارا في حال وفاة اللايدي دافنبورت. ولما كان الجميع يعرفون انها لا تحب هذا المكان، فقد توقعوا ان يتلقوا امراً بالانصراف. اما الآن، فهم ليسوا واثقين. . . ».

هتفت سمانثا فوراً:

«عليهم ان يبقوا طبعاً. ارجو ان تطمئنيهم حول هذا الموضوع. ولا داعي لخوفهم لاني لن ابيع دافن».

خاطبتها ايميلي بارتياح:

«الحقيقة انني سعدت عندما سمعتك تقولين ذلك يا انستي. واعلم ان هذا ما طمحت اليه جدتك، كانت على يقين من انك ستحبينه كما احبته».

«آه، اني احبه. لكن هناك اشياء كثيرة ينبغي القيام بها، ولا شك اني ساشغل نفسي لسنوات عديدة بالأمور التي اريد ان اصلحها هنا».

فعلقت ايميلي بمكر:

«ولماذا تريدين ان تشغلي نفسك لسنوات عديدة؟ فمن المؤكد انك ستتزوجين عما قريب وتنجبين اولاداً. ام تحسبين اني لا اعرف ان عمرك يزيد على ست عشرة سنة؟ الم اكن انا في دافن عندما احضرك الى المكان وانت طفلة؟».

«هل كنت هنا حقاً يا ايميلي؟».

«اجل. واذكر ان اللايدي دافنبورت اقامت ضجة عظيمة حولك. ولشد ما انزعجت عندما حضر السيد جون واخذك بعيداً».

فتنهدت سمانثا بحرقة:

«كان هذا منذ زمن بعيد».

«اجل، الا انك امرأة ناضجة الآن. وبامكانك ان تفعلي ما تشائين. هل هذا صحيح؟».

اجبر الصوت البارد الساخط المنبعث من فتحة الباب المرآتين على الاستدارة، لتجدا بربارا واقفة هناك. كم مضى عليها وهي واقفة في الباب؟ كم سمعت من حديثهما؟ وقالت لايميلي:

«توقعت ان اراك هنا تملأين رأس الفتاة باحلامك المجنونة. لقد قلت لك انك عجوز حمقاء تتدخلين في كل شيء. ومن الواجب ان تخرجي من هذا البيت الآن، وحالاً. ولا شك انك شجعت والدتي على ارتكاب

حماقتها، واستدرار عطفها على هذه الفتاة التي اجبرنا على استرجاعها وتبنيها. كنت اعرف انك المسؤولة عن كل ما حدث لانك تكرهينني. . . ».

تجمد وجه ايميلي غضباً وحزناً. الا انها تمكنت من القول بهدوء:

«لم اكرهك يوماً يا بربارا. الا انك كنت تغارين مني كما تغارين من اي شخص تفترضين انه قد يخطف بريق الاضواء المسلطة عليك. واعرف انك لم تريدي الاعتراف بابنتك، ولكن، لماذا؟ هل كان ذلك لأنك ام غير طبيعية، ام لانك خشيت ان تكبر ابنتك وتصبح جذابة فتخطف الابصار المشدودة اليك؟».

«اصمتي!».

«لن اصمت. فانا قد صمت طويلاً حتى الآن. ولو علمت والدتك، رحمها الله، ببعض ما فعلته، لانزعجت وهي في قبرها».

عندئذ عبرت بربارا الغرفة وصفعت ايميلي بوقاحة على وجهها، الامر الذي استدعى تدخل سمانثا، فصاحت:

«ايميلي. ايميلي. . . ».

هزت ايميلي رأسها:

«لا تضطربي يا آنستي. فانا ذاهبة. لكني سارجع واراك ثانية عندما تقل مشاغلك واهتماماتك. لا تستسلمي يا عزيزتي. فكل شيء سيكون على ما يرام».

واستحثت سمانثا الخادمة بالخروج من غرفتها وقد خافت من ان تصفعها امها ثانية. ثم عادت لمقابلة بربارا التي قالت:

«حسناً! وماذا تظنين انك ستفعلين الآن؟».

هزت سمانثا كتفيها:

«لست ادري بعد. فاني احتاج بعض الوقت للتفكير. . لاستجماع افكاري».

«وتتوقعين ان تفعلي هذا هنا؟».

«طبعاً. فهذا قراري قبل كل شيء».

«يبدو انك انت التي تصوغين كل القرارات، اليس كذلك؟».

«لا افهمك يا بربارا».

عقبت بربارا بحقد واضح فيما جلست على المقعد الطويل:

«لا اظنك تفعلين».

فخاطبتها سمانثا وقد حاولت المحافظة على هدوئها:

«هلا تفضلت بالخروج؟».

«لماذا؟ انك ابنتي قبل كل شيء».

فاجابتها سمانثا بغضب:

«انني ابنتك بالاسم فقط».

«حقاً! ارى اننا نزداد حقداً».

ولمست سمانثا شفتيها الجافتين بلسانها:

«ارجوك. لا تسببي شجاراً بيننا».

«ولماذا لا؟ فانا ارغب بهذا الشجار. واعتقد انني عشت شجاراً طول هذه المدة».

«لا افهم قصدك».

«باتريك مالوري. انك تتصرفين وكأنك تجهلين كل شيء».

احمرت سمانثا خجلاً وقد عجزت عن ضبط انفعالاتها، فيما اطرقت بربارا مختالة:

«ارأيت؟ لا اكاد اذكر اسمه حتى تحمرين خجلاً. يا للسخرية! بحق السماء، قولي لي ماذا تظنين انك تعنين له؟».

فسألتها سمانثا باقتضاب:

«اذا كنت لا تعتقدين اني اعني له شيئاً، فلماذا تقولين انك عشت شجاراً معه طوال الوقت؟».

«سؤال حسن. الحقيقة يا عزيزتي، ايتها الافعى المعششة في صدري، انه عندما غادر صديقنا المشترك هذا المنزل، اعلن بوضوح انه لا يريد الابقاء على علاقة له باية واحدة منا».

صعقت سمانثا وصاحت:

«ماذا؟».

«اخبرني انه يعرف عمرك الحقيقي. وقد اعلن انه ينبغي جلدي لاني خدعت الجميع، وافسدت عليك سعادتك. والآن، ماذا تظنين انه قصد بملاحظته هذه؟».

كادت سمانثا تبكي:

«لا يمكنني ان افهم شيئاً».

«وكذلك انا. لكنك قلت له شيئاً ازعجه. وقد اخبرني ان شركة اميركية لانتاج الافلام عرضت عليه شراء حقوق نشر مسرحيته الاخيرة، وانهم طلبوا اليه السفر الى كاليفورنيا فوراً اذا كان راغباً في ذلك. واكدت لي ملامحه عندما غادر المنزل انه راغب في ذلك من كل قلبه. وعليه، احسب ان كلا منا قد خسر شيئاً، اليس كذلك؟».

ذهلت سمانثا. وهتفت:

«لا... لا يمكنني ان اصدق هذا».

«حقاً؟ اذن صحت شكوكي. ولا يمكنني ان افهم كيف يسمح رجل من مستوى باتريك لنفسه ان يتورط معك ولو مؤقتاً».

ارتمت سمانثا على مقعد النافذة. ما قيمة خططها لتجديد وترميم دافي؟ الم تفكر انها ستفعل ذلك ليس من اجلها هي فقط، بل من اجل باتريك ايضاً؟ عندئذ استأنفت بربارا حديثها متندرة:

«حسبت ان ذلك سيخرجك من عالمك الوهمي. لكن، ليس هذا كل ما في الأمر».

«وماذا يمكن ان يكون هناك ايضاً؟».

طرحت سمانثا هذا السؤال دون ان تكترث بنفسها، فمن المؤكد ان بربارا لن تستطيع ان تؤذيها اكثر من ذلك. اذا كانت علاقتها بباتريك قد انتهت، لا يهمها شيء».

«ماذا قالت لك والدتي في رسالتها التحليلية؟».

«هذا شأن خاص بي».

«اراهن انها لم تطلعك على السبب الحقيقي لاحضارك الى لندن».

رددت سمانثا بانشداه:

«السبب الحقيقي لاحضاري الى لندن! عندما علمت جدتي بوفاة والدي، اسرعت الى وضع الترتيبات لحضوري الى انكلترا».

ابتسمت بربارا ابتسامة قاسية. ثم ضحكت بوقاحة:

«الحقيقة انني انا فعلت ذلك. ولكن، يا لك من فتاة بريئة يا سمانثا العزيزة!».

وقفت بربارا ثم تقدمت من النافذة:

«الحقيقة ان جدتك العزيزة احضرتك اليها لانه لم يكن امامها اي خيار آخر».

تقلصت عضلات سمانثا، وصرخت:

«كفي عن التحدث بالالغاز. ماذا تقصدين بقولك انه لم يكن امامها خيار آخر؟».

ادارت بربارا ظهرها الى النافذة وقالت:

«الحقيقة ان والدك وضع في وصيته شرطاً يطلب فيه اعلامك بوجودي عند وفاته، وبوجوب احضارك الى انكلترا على ان اعترف بانك ابنتي».

احست سمانثا بالدوار:

«ماذا تقولين؟».

«اجل يا حبيبتي. لقد حسبت انك لم تعرفي هذا السر».

«ولكن، كيف كان يمكنه ان يفعل ذلك وهو لا يملك اي ضمانات بانك ستقبلين؟».

التفتت اليها بربارا موبخة:

«ألم يكن عنده ضمانات؟ الحقيقة انه كان يملك افضل ضمانة ممكنة في مثل ظروفي».

فصاحت سمانثا وهي تكاد تنفجر باكية:

«تابعي حديثك. ما هي الضمانة؟».

«لقد كتب والدك رسالة يصف فيها ظروف زواجنا وطلاقنا، مشيراً الى التواريخ والاسماء وكل شيء آخر. ولا شك انك منذ وصولك الى هنا ادركت الاهمية التي تعلق على الصحافة في أوساط المسرح. هذه الفضيحة اللاأخلاقية.. كانت كفيلة باختفائي وانتهاء دوري. ولقد كان يعرف ذلك. وكانت الرسالة ستسلم الى الاشخاص الملائمين في حال رفضي الاعتراف بك».

اغمضت سمانثا عينيها يائسة، اذ لم يكن هناك شخص أهين وأذل قدر ما اهينت واذلت. ثم استأنفت بربارا حديثها:

«ولسوء حظك، نسي جون امراً بسيطاً هو سنك. فهو لم يذكر شيئاً عنك، ولذلك استفدت من الامر وحدت القدر على هذه الهبة البسيطة.

والآن ما رأيك بجدتك العزيزة؟».

احست سمانثا ان دموعها اوشكت ان تسيل على خديها. فهمست:

«لن يتغير شعوري ابداً. وانا لا اهتم باقوالك لمعرفتي ان جدتي كانت تحبني».

«لا تنسي انها تصرفت بناء على تعليماتي. فلو رفضت البقاء في انكلترا، لكانت القصة تنشر، لذلك كان من الواجب ان تبقي. وقد طلبت اليها ان تستعمل كل وسيلة ممكنة لمنعك من مغادرة البلاد. والواضح انها افلحت في مسعاها».

عندئذ همست سمانثا بوهن:

«اظن انك ابغض شخص التقيته في حياتي. فانت لا تشعرين بالرضى الا عندما يخر الجميع امامك ويقبلون قدميك، أليس كذلك؟ كيف امكنك ان تخبريني بكل هذه التفاصيل؟ كيف امكنك ذلك؟».

تجهم محيا بربارا:

«لانك لم تسببي لي الا الازعاج منذ ساعة وجودك».

مسحت سمانثا دمعها وسألتها:

«وماذا عنك؟».

ابتسمت بربارا ابتسامة متكلفة:

«انا؟ لدي عملي... ومنزلي في لندن واصدقائي... وحتى باتريك سيعود من كاليفورنيا آخر الامر. وهو سينسى كل شيء لأن الرجال غالباً ما يفعلون. وربما تزوجته واصبح زوج امك».

رفعت سمانثا ناظريها الى والدتها:

«وماذا لو قررت ان انشر قصتي في الصحافة؟».

هزت بربارا رأسها واثقة:

«لن تفعلي يا عزيزتي. فالقسوة ليست من طبعك. ولذلك لن تنجحي».

وغلبت سمانثا على امرها. انها لن تفضح بربارا. اما الاخيرة فاتجهت نحو الباب مستأنفة حديثها:

«اظن اني سارتدي ملابسي واعود الى المدينة لاني فعلت كل ما جئت لافعله».

راقبتها سمانثا تغلق الباب قبل ان تطرح نفسها على السرير وتستسلم للبكاء. وصحيح انها شعرت بالشقاء من قبل، الا ان هذا كان الظلم والعذاب بعينه. فقد تحطمت كل آمالها واحلامها، حتى ان حبها البريء لجدتها لوّث بكلمات بربارا القذرة واتهاماتها الشنيعة. ولم يعد هذا المنزل يعني لها السعادة لانه محاولة اخرى لابعادها عن طريق بربارا وامساكها الى الابد.

وجلست بعد برهة لتجفف وجهها، لان الدموع ميزة الضعفاء ولن تكون سمانثا ضعيفة بعد الآن. لم يكن امامها مجال لتعمل اي شيء الليلة. ولكن غداً... غداً سترحل بعيداً...

وارتفعت معنوياتها بعد ان اتخذت هذا القرار. كان بحوزتها بعض المال اعطته اياها جدتها لاستعمالها الشخصي. وهو كاف لايصالها الى اي مكان تقرر السفر اليه. وعندما تصل الى هدفها، ستجد عملاً، وستنسى انها عرفت والدتها وجدتها... وحتى باتريك مالوري. ولكن، اين تذهب؟ لم تعرف الا القليل عن انكلترا، ولم يكن لها اصدقاء هنا. اما في ايطاليا، فبيتهو ينتظرها. ثم تذكرت ماتيلد، التي قالت انها تستطيع الاتصال بها وقت الحاجة في منزل شقيقتها في رافنا. انها تتكلم الايطالية مثل اهل البلد، ولا شيء يحول بينها وبين العودة الى ايطاليا.

٨ـ البحث عن سمانثا

مرّ اسبوع كامل تقريباً قبل ان يندفع باتريك بسيارته الاوستن مارتن عبر الطريق المؤدية الى مسكن دافن. ودهش اذ لم يلمح تغيراً في المنزل، لأنه توقع ان تكون سمانثا قد بدأت بتنظيف الغرف وازاحة الستائر وطرد شبح الكآبة. وعلى عكس توقعاته بدا المنزل موحشاً، والدخان المتصاعد من المدخنة ينبعث من ناحية المطبخ فقط.

لقد اتسع وقته كثيراً في الأيام القليلة الماضية للتفكير. وانه يعرف الآن ماذا يريد. ولا بد ان يتحدث الى سمانثا في الموضوع أياً تكن مشاعرها، لانه عازم ان يعرف وللمرة الأخيرة موقعه في قلبها.

وكثيراً ما قال في نفسه انها صغيرة جداً بالنسبة اليه، لا من حيث سنها فحسب، وانما من حيث وعيها وتجربتها. الا ان مشاعره لم تكن جارفة في يوم من الايام مثلها هي اليوم. ولم يغمض له جفن لشدة قلقه على سمانثا.

وكان قد غادر دافن غاضباً بسبب محادثته مع سمانثا واتهامها له في صدق دعوته من جهة، وبسبب الشجار الذي نشب بينه وبين بربارا من جهة اخرى. ولم يقصد ان يطلع بربارا على درايته بعمر سمانثا الحقيقي. الا ان السخط تملكه عندما شرعت بربارا بالتعبير عن غيظها من اعطاء التركة لسمانثا. ثم تبادلا بعض الكلمات القاسية قبل ان يغادر، لعلمه انه لن يتمكن من رؤية سمانثا بمفردها اذا بقيت امها هناك. وكم تمنى ان يزورها خلال الاسبوع المنقضي. لكنه كان دائماً يؤجل قدومه بغية توفير الوقت لسمانثا حتى تتعافى من صدمة وفاة جدتها. اما اليوم، فقرر ان لا مجال امامه للانتظار. وانطلق بعد الفطور مباشرة.

وعندما رأى المنزل شبه مهجور الآن، انبأته حاسته السادسة ان الامور ليست على ما يرام، واحس بوخز نتيجة الشك والقلق.

وترجل من السيارة. ووقف ويداه في جيبي معطفه رافعاً نظره الى المنزل.

ثم قرع الجرس فكان صدى رنينه حزيناً في الداخل. ولم يطل انتظاره حتى فتح له الباب خادم عجوز هاتفاً:

«آه! سيد مالوري! هل لي ان اساعدك؟».

عبس باتريك محيياً:

«أود ان أرى الآنسة سمانثا».

بانت الحيرة في عيني الرجل العجوز:

«الآنسة سمانثا! انها ليست هنا. . .».

اطبق باتريك راحتيه داخل جيبي معطفه. وصاح:

«ماذا تعني انها ليست هنا؟».

«اعني ما قلته يا سيدي. فالآنسة سمانثا غادرت دافن في اليوم التالي للجنازة. وظننتك تعرف ذلك».

واعترى باتريك قلق وخوف شديدان:

«كلا. وكيف يمكنني ان اعرف؟».

هز الخادم كتفيه:

«الحقيقة يا سيدي ان الآنسة سمانثا قالت انها ذاهبة الى لندن. وعليه، ظننت انها ستقيم عند والدها. وبناء على معرفتك الوثيقة بالآنسة بربارا، توقعت ان تكون على دراية بالأمر. . .».

وتأرجح باتريك في وقفته:

«فهمت. ألم تسمعوا شيئاً منذ غابت؟».

«كلا يا سيدي. ارجو معذرتك. تفضل بالدخول يا سيدي».

تردد باتريك قبل ان يقول:

«كلا. لا اعتقد اني سأدخل لأن لا شيء لي هنا الآن».

وتملكه الذعر. فبربارا وسمانثا لا يمكن ان تتعايشا في مثل هذه الظروف. غير ان هذا الرجل المسكين لا يتسنى له معرفة ذلك. واخيراً كلمه:

«حسناً. اني اشكرك».

وابتسم الخادم بينما هبط باتريك السلم متمهلاً قبل ان يحتل مقعد القيادة في سيارته ويندفع بها الى الشارع. وتبلبلت افكاره واحتارت امام هذا التحول الخطر في مجرى الاحداث. وشعر ان ثمة خطأ لماذا عادت سمانثا الى لندن؟ واين هي الآن؟

واجتاز القرية الصغيرة الوادعة التي يتألف مركزها التجاري من مخزن متصل بمكتب البريد، الى جانب فندق صغير اسمه «كوينز هد» وكنيسة.

ودخل باتريك الفندق طلباً للشراب قبل ان يكمل سيره الى لندن. ولم يطل اقامته في الفندق المليء بزبائن من اهل القرية. وعاد الى مقود سيارته منزعجاً لعدم قدرته ان يفعل شيئاً. اين يمكنه ان يجد سمانثا؟ هل يسعه ان يسأل بربارا عن مكانها؟ صحيح ان الفكرة لم ترق له، الا انها كانت الفكرة الوحيدة التي خطرت له. ودخل منزله، فنادى على السيدة تشسترتون التي هرعت اليه من المطبخ وقد ارتسمت الدهشة على محياها وصاحت:

«ارى انك عدت يا سيدي! لقد توقعت ان تتأخر».

فاجاب باتريك ببعض النكد:

«وانا ايضاً. اخبريني، هل اتصل احد بي اثناء غيابي؟».

«كلا يا سيدي. هل توقعت اتصالاً؟».

هز باتريك كتفيه. وتنهد بينما رد على سؤالها:

«كلا، في الحقيقة. حسناً، اشكرك يا سيدة تشسترتون».

«هل تناولت شيئاً يا سيدي؟».

«كلا. ولكن، لا تضطربي لاني لست جائعاً».

صاحت السيدة تشسترتون مستهجنة:

«هراء. سوف أعدّ لك شطيرة، واحضرها الى مكتبك».

«لكني سابقى في ردهة الاستقبال لاني اريد اجراء مخابرة هاتفية».

«حسناً يا سيدي».

واشعل سيكارة اخذ منها مجة طويلة قبل ان يرفع السماعة ويطلب شقة بربارا. وخيل اليه ان رنين جرس الهاتف لم يتوقف في الطرف الآخر من الخط الا بعد اجيال، مع ان صوت كلايد سمع بعد لحظات في الواقع:

«شقة الآنسة هاريت. من يتكلم؟».

سحل باتريك سيجارته بينما اجاب باقتضاب:

«مالوري. هل بربارا موجودة؟».

وطرأ تغير ملحوظ على نبرة كلايد:

«آه، السيد مالوري. الحقيقة ان الآنسة نهضت حالاً من الفراش، واظنها ستحدثك».

فشكرها باتريك بعصبية. وما هي الا لحظات حتى سمع صوت بربارا الناعم يرند بدفء:

«كم انت رائع يا حبيبي. هل نسيت جدالنا العابر؟ آمل ذلك. اني... الحقيقة ان الذنب في ذلك كله ذنبي...».

رد باتريك عليها بجفاء وقسوة:

«اشاطرك الرأي. بربارا، هل تقيم سمانثا معك؟».

«سمانثا!».

ولم يكن لباتريك ان يتنبأ من لهجتها ان سؤالها قد صعقها. فقال:

«لا بأس عليك. يمكنني ان اؤكد من نبرة صوتك انها ليست مقيمة معك».

«ولكن، لماذا تقيم سمانثا معي؟ ان دافن ملكها الآن، ولا حاجة بها للاقامة في شقة قديمة مهترئة في المدينة».

«صحيح. حسناً. اني اشكرك يا بربارا».

وسألته بربارا عندئذ بنبرة اقسى:

«هل هذا هو سبب اتصالك؟».

«اظن ذلك. وفي اي حال، اني اشكرك واعتذر لازعاجك».

«آه باتريك...».

لكن باتريك اقفل الخط في وجهها. وكان واضحاً ان بربارا لا تعرف اين هي سمانثا. ونشأ وضع مقلق ومثير. اذا لم تكن سمانثا عند بربارا، فأين يمكن ان تكون؟ انها لا تعرف شيئاً عن سكان لندن. وازعجته فكرة محاولة سمانثا العمل في هذه المدينة المزدحمة والمخيفة احياناً، خصوصاً وانها فتاة بريئة لم تصقلها الحياة او تجربها بعد. ولكن، لماذا قصدت لندن؟ ولماذا لم تبق في دافن؟ وهل يمكن ان يكون قد حدث امر لم يعلم به؟ وما هو؟

اخذ يذرع الغرفة باضطراب محاولاً العثور على حل. واحضرت السيدة

تشسترتون بعض الدجاج البارد له، لكنه بالكاد ذاق لقمة منه لتوتر اعصابه وانهماكه في التفكير. وكان من المحتمل ان تعرف بربارا اكثر مما قالت. فمع كل البراءة التي تجلت في نبرة صوتها، فانها ليست شخصاً يعول عليه. واعاده هذا التفكير الى سبب فرار سمانثا. ولا شك ان بربارا بقيت في دافن بعد انطلاقه والسيد بولام في رحلة العودة. فهل يمكن ان تكون قد اطلعت سمانثا على امر جعلها تتردد الف مرة قبل ان تقبل نصيبها من الميراث؟ ولشد ما اغتاظت بربارا عندما اوصت اللايدي دافنبورت بالتركة لسمانثا. وحين تغضب بربارا، فانها لا تفكر من تؤذي وكيف.

واشعل سيكارة اخرى. ثم تطلّع من النافذة بكآبة. وبدا انه لا يستطيع ان يفعل شيئاً. ولم يجد احداً سوى بربارا يتجه اليه بالسؤال.

عندئذ تذكر اميلي التي احبها لقوتها ولكونها شخصاً يعتمد عليه. وتراءى له ان اميلي احبت سمانثا، في حين لم تقتنع ببربارا التي عرفتها منذ ايام شبابها. ولم تخدع بما احاطها من هالة عظمة ووقار. ومن الجائز ان تعرف اميلي شيئاً عن تحركات سمانثا. لو انه يستطيع الاتصال بها... وصدم ثانية بحقيقة انه لا يعرف كيف يعثر على اميلي، تماماً كما لا يعرف كيف يعثر على سمانثا. ولكن اميلي قضت شطراً كبيراً من حياتها في دافن. ولا بد ان يكون احد القرويين يعرفها ويعرف مكان اقامتها. هذا هو الحل. دافن. واميلي.

وعاد الى قرية دافن عند الساعة الثامنة من مساء اليوم نفسه. وتوقف امام فندق الكوينز هد. فهذا هو المكان الوحيد في قرية صغيرة مثل هذه يجد فيه المعلومات الضرورية. ولا شك ان مسكن دافن واميلي التي تعمل فيه هما موضع اهتمام القرويين. فالناس يتمنون دائماً ان يعرفوا عن ابناء الطبقات النبيلة الذين يعيشون حياة منعزلة عنهم. كانت قاعة الفندق مزدحمة لان كثيراً من الزوار وفدوا الى القرية وزادوا من عدد رواد البار. وسأل بائع المرطبات اذا كان يعرف اميلي لوسون. فرمقه عامل البار بنظرة غريبة بينما سأله:

«وماذا تريد من الآنسة لوسون؟ انك من المدينة، اليس كذلك؟ هل انت قريبها؟».

هز باتريك كتفيه واجابه:

«ولست قريبها، وانما اريد التحدث اليها في امر شخصي. فهل تعلم اين اجدها؟».

«اعتادت الآنسة لوسون على زيارة السيدة بيل في منزلها الصغير. والارجح ان السيدة بيل تعرف اين توجد».

«اشكرك».

وغادر باتريك المكان فوراً دون ان يسأل عن المنزل ففي قرية صغيرة يمكنه ان يهتدي الى كوخ حقير. وترك السيارة في الموقف الخاص قرب الفندق. واخذ يتمشى في الشارع العام واضعاً يديه في جيبي معطفه. واجتاز المتجر ومنزل الطبيب وباحة الكنيسة وبيتاً صغيراً وضعت عليه اشارة «الشرطة». ولم يلمح اثراً للمنزل في هذا الجانب من الشارع. وخيب الجانب الآخر من الشارع آماله ايضاً. فتنهد تنهيدة سخط وحزن. ولم يشأ العودة الى الفندق للاستقصاء من جديد. وبينما يقف على طرف الرصيف محاولاً التفكير بخطوته التالية، سمع صوتاً يناديه:

«يا الهي! هل هذا السيد مالوري؟».

استدار باتريك مضطرباً:

«اميلي. انني سعيد بالعثور عليك ايتها الملعونة».

فاكفهر وجه اميلي:

«هل تبحث عني؟».

اطرق باتريك. ثم سألها:

«هل تسكنين القرية؟».

«اجل. اني اقيم مع صديقتي السيدة بيل حالياً. ولست ادري ماذا سأفعل بعد ذلك. ولم اتمكن حتى الآن من استجماع افكاري. والحقيقة اني كنت في طريقي لمقابلة الآنسة سمانثا. فهل زرتها انت ايضاً؟».

فأجابها باتريك وهو يهز كتفيه متعباً:

«سمانثا ليست في المسكن. ظننت انك تعرفين مكان وجودها».

ذهلت اميلي، وصاحت:

«ليست في المسكن. ولكن، اين هي؟».

«لو اني كنت اعرف، لما حضرت الى هنا».

ما كاد يتلفظ بكلماته القاسية، حتى تنهد مضيفاً:

«وانها لوقاحة مني. فانا ابحث عنها منذ الصباح مثل المجانين. وقد اتصلت ببربارا. فاتضح انها لا تعرف شيئاً. او انها قالت ان سمانثا في دافن».

تعاظمت حيرة اميلي فيما تطلعت الى باتريك قائلة:

«اذاً ان ما تقوله يبعث القلق. اوليست لديك اي فكرة عن مكانها؟ هل اختفت فجأة بدون ان تقول شيئاً؟».

«الحقيقة اني سألت خادماً عجوزاً يعمل في المنزل. فقال انها ابلغتهم انها عائدة الى لندن. وعليه افترض الجميع انها تقيم مع والديها».

عقبت اميلي بجفاء:

«لست ارى شيئاً ابعد عن الحقيقة من هذا القول».

«وهذا ما رأيته انا ايضاً».

«خصوصاً بعد شجارهما يوم الجنازة...».

«ماذا. هل تشاجرتا؟».

وضعت اميلي يدها على حلقها:

«حسناً يا سيدي. اني لا أود التحدث في مثل هذه الأمور».

«كفاك تهرّباً يا اميلي. فهذا امر مهم للغاية. ماذا جرى؟».

عضت اميلي شفتها قبل ان تجيب:

«كنت اتحدث الى الآنسة سمانثا بعد ذهابك طبعاً. وبينما تحدثنا عن مسكن دافن، اعربت الآنسة سمانثا عن رغبتها باعادة تنظيم المسكن... وجعله منزلاً لائقاً مرة اخرى. فاكدت لها ان تلك كانت رغبة جدتها. واذ ذاك اقتحمت علينا الآنسة هارييت خلوتنا. وتصرفت بوقاحة... بوقاحة شديدة. تجاهي انا في الواقع. وقد انزعجت الآنسة سمانثا منها كثيراً. والحقيقة اني طردت طرداً من المنزل. وبعد خروجي الله وحده يعلم ماذا جرى. واني آمل الا تكون الآنسة هارييت قد اخبرت الآنسة سمانثا عن وصية والدها الاخيرة...».

«اي وصية؟ وهل لها علاقة بعودة سمانثا الى انكلترا؟».

«اجل».

فتأوه باتريك:

«توقعت مثل هذا الامر. هيا بنا يا اميلي الى السيارة. فهذا ليس المكان

للناسب مثل هذا الحديث».

وفي السيارة، اخبرت ايميلي باتريك القصة باكملها، ولم تخف التفاصيل. عندئذ فهم باتريك كثيراً من الأمور كانت بربارا تقوم بها على عكس طبيعتها. وامكنه ان يتصور موقف سمانثا التي، ان اطلعت على الواقع، ستعتبر نفسها ضحية للمكر والخيانة. وفي ظروف مثل الظروف التي عاشتها، كانت هذه القصة اشبه بالقشة التي قصمت ظهر الجمل. ولما انتهت ايميلي من حديثها سألها باتريك:

«وهل تتصورين ان بربارا اخبرت سمانثا بالحقيقة؟».

«الحقيقة يا سيدي اني اتصور ذلك معقولاً جداً، خصوصاً اذا تأملت تعابير وجهها آنذاك».

واسند باتريك ذقنه على يديه الموضوعتين فوق مقود السيارة. يا لسمانثا من فتاة مسكينة شقية. لعلها تفكر ان احداً لا يكترث بها، وكم عقد الأمور حين عاملها بهذه الطريقة. ولن يسامح نفسه أو ينسى ذنبه في كل ما حدث.

وتنهدت ايميلي تنهيدة حارة:

«اذن، فانها ذهبت».

«لا شك انها شعرت برغبة الفرار ان كانت قد اطلعت على الواقع. ولو كنت مكانها، لفعلت».

«اعتقد ذلك. اني قلقة عليها كثيراً لانها لا تعرف احداً في لندن، كما انها ليست فتاة يسهل عليها الاعتماد على نفسها».

«ولكن اين يمكن ان تكون قد ذهبت؟ اين؟».

وحاولت ايميلي جاهدة ان تفكر. هل كانت سمانثا تعرف شخصاً آخر هنا؟

ثم قالت فجأة:

«اعتقد انها عادت الى ايطاليا يا سيدي».

فهتف باتريك ضارباً راحة يده بقبضة الأخرى:

«ايطاليا! طبعاً يا ايميلي. كان يجب ان افكر بايطاليا حيث لها اصدقاء. ولا شك انها عادت لتراهم».

وهمست ايميلي متشككة:

«وربما كان ذهابها مؤقتاً. ولكن، اذا كان هذا صحيحاً، فلماذا لم تعلم احداً بذهابها؟».

«هذا غريب، في اي حال، اني املك الآن مفتاحاً. وسأتصل بالمطار فور عودتي الى المدينة، وساعلمك بما يستجد. هل تملك صديقتك هاتفاً؟».

«السيدة بيل؟ كلا. ولكن سيصلنا اي خبر تتركه في فندق الكوينز هذا».

ابتسم باتريك لها:

«حسناً يا ايميلي. اني اشكرك. ولا تقلقي لاني ساجدها».

وابتسمت له ايميلي بينما همست راضية:

«كنت افكر ان الآنسة استحوذت على قلبك».

فعبس باتريك:

«هذه افكار خاصة يا ايميلي، لا يجوز لك ان تنشريها».

«اعلم يا سيدي. لكن الآنسة سمانثا ازعجت كثيراً، ولم ار شخصاً آخر يستطيع مساعدتها وتغيير ظروفها سواك».

فقال باتريك بنبرة جافة:

«آمل ذلك يا ايميلي. وسابذل جهدي».

دخلت سمانثا منزل سوفيا ذا سقفا الواقع في شارع الغاتي في مدينة رافنا. وكانت الدنيا تمطر في الخارج بغزارة، بينما ارتدت سمانثا معطفاً ابيض بدت عليه آثار الرطوبة الشديدة. وكانت قد اشترت المعطف يوم وصولها الى ميلانو. ومنذ عودتها قبل اسبوع، لم ينقطع المطر، وتميز الجو ببرودة غير مألوفة في هذا الفصل من السنة.

واذا كان الطقس كئيباً، فلا شك انه يعكس مشاعرها. . . ولا يهمها الجو في أي حال. وكم احست بالتعاسة والشقاء ان رافنا لم تكن تشبه بيروزيو حيث عرفت الجميع، وليست الا مدينة غريبة مثل لندن لا تعرف فيها الا ماتيلد العجوز وشقيقتها سوفيا. ومن الطبيعي انها زارت بيروزيو لترى قبر والدها الذي بدا غريباً ان يكون قد مات قبل فترة قصيرة، وقعت خلالها احداث من الكثرة بحيث ان الأيام التي عاشتها توازي عمراً كاملاً. وكانت قد عادت الى الساحة لتوقف حافلة الركاب المتجهة الى رافنا

عندما سمعت شخصاً يحييها. واستدارت لتجد بنيتو يقف وراءها ويسألها مشدوهاً:

«سمانثا؟».

واستطاعت ان تفهم استغرابه، لانها بدت كمن استحم بالمطر والريح. وبدت في معطفها الرخيص وانما الانيق وحذائها ذي الكعب العالي فتاة غير الفتاة التي غادرت بيروزيو. فكلمته وهي تصطنع الابتسام:

«مرحباً يا بنيتو، ما اجمل ان التقيك ثانية».

ولم يستطع بنيتو الا ان ينظر اليها مذهولاً. ثم نطق بالايطالية:

«ولكن. . . ولكن. . .».

وعادت تخاطبه بلغته في طلاقة:

«لا تدهش. اني لست شبحاً، بل انا حية واقيم حالياً مع ماتيلد وشقيقتها في راغسا. وسوفيا، شقيقة ماتيلد، تعرف شخصاً يريد مربية لابنه الصغير. لذلك اظن اني ساحصل على وظيفة مربية عما قريب».

بدا الذهول على بنيتو الذي صاح مشدوهاً:

«ولكنك لا تستطيعين ان تفعلي ذلك. فانت تعرفين شعوري نحوك يا سمانثا. والحقيقة اني ظننتك قادمة لرؤيتي عندما لمحتك».

تلوّن وجه سمانثا بالف لون ولون:

«بنيتو! بنيتو! اني آسفة اذا كنت قد جعلتك تفكر هكذا. لكني اتيت في الواقع لازور قبر والدي. . .».

«وماذا عن رحلتك الى انكلترا؟ الم تكن ناجحة؟».

ردت سمانثا باختصار:

«كلا».

«اذن، ماذا تنوين ان تفعلي؟».

«اعتقد اني اخبرتك».

تأمل بنيتو كفيه يائساً وهتف بغضب:

«يا للسخرية. سمانثا، ارجوك. . .».

«قبل ان اسافر يا بنيتو تحدثت الى والدتك. فابلغتني انها لن تقبل بي كنّة لها على الاطلاق. وقد اكتشفت انا الآن ان ما كان بيننا لم يكن حباً حقيقياً».

احمر وجه بنيتو:

«كيف يمكنك ان تعرفي هذا؟ هل التقيت رجلاً آخر في انكلترا؟».

خفضت سمانثا رأسها:

«اجل».

«اذن، لماذا جئت الى هنا؟».

لم يستطع بنيتو بتفكيره الساذج ان يرى العالم الا بالابيض والأسود، عاجزاً عن تمييز الظلال المنتشرة بينهما.

«انها قصة طويلة».

اجابته سمانثا بقولها هذا بينما التفتت الى آخر الشارع وهي تتمنى مخلصة ان تحضر حافلة الركاب. ولم ترد اثارة اي جدال آخر مع بنيتو.

«هل تنوين الاقتران بهذا الرجل؟».

هزت سمانثا رأسها. وتحرك بنيتو بعصبية:

«ولكن، لماذا؟».

اطبقت سمانثا شفتيها، واحست بالدموع تترقرق في عينيها. الا انها حبست دموعها غاضبة واجابته:

«لانه لا يريدني. والآن، ارجوك ان تتركني لوحدي».

وهزت كتفيها يائسة بينما مررت لسانها على شفتها العليا:

«آه يا بنيتو! ماذا يمكنني ان اقول لك؟ كيف حالك».

«اني بخير. لقد رزقت سلفانا ولداً آخر».

وسلفانا شقيقة بنيتو التي انجبت ثلاثة صبيان حتى الآن.

افترّ ثغر سمانثا عن ابتسامة متكلفة لان حدثاً من هذا النوع كان العالم كله بالنسبة اليها منذ شهرين. وسألته:

«وهل حزنت؟».

«كلا. فماريو يريد ان ينجب عدداً كبيراً من الابناء الذين يقتدون به».

وعادت سمانثا تنظر عبر الشارع. لو ان حافلة الركاب تأتي الآن!

واحس بنيتو بانقباضها وكآبتها. فادخل يديه في جيبي بنطاله متنهداً:

«حسناً. ساذهب الآن والدتي تنتظرني».

وتنهدت سمانثا:

«حسناً يا بنيتو. لقد سعدت بلقائك من جديد».

لم يكن ما قاله كافياً، لكنها لم تجد شيئاً آخر تقوله.

واطرق بنيتو. ثم جرى عبر الشارع وهو يلقي نظرة عليها بين الحين والآخر. ولوّحت سمانثا له بيدها بتمنية ان تحضر حافلة الركاب. ووصلت الحافلة.

حدث كل هذا قبل أربعة ايام. واليوم ذهبت لمقابلة السنيورة ماركازي. ولم تعجب هذه المرأة الايطالية البدينة البغيضة سمانثا تماماً، ولا ابنها الصغير البدين والفاسد الاخلاق. ومن المؤكد ان فيتريو الصغير كان قزماً، ومحاولاته العديدة لاثارة سمانثا افلحت في اعطاء ثمارها المرجوة آخر الأمر، واعترتها رغبة بالاندفاع من المنزل القائم في منطقة راقية من المدينة، وعدم العودة لرؤية هذين الشخصين القرفين. لكنها اعجبت السنيورة ماركازي على ما يبدو. ولما كان زوجها السنيور ماركازي مأخوذاً بفكرة الحصول على مربية انكليزية لابنه، فانها تمكنت من الحصول على الوظيفة.

وطلبت سمانثا يوماً كاملاً لبحث الموضوع وذلك لأنها لم ترغب بالعمل عند اسرة ماركازي. وظهر جلياً ان السنيورة ماركازي لم تعتبر اقتراح سمانثا اقتراحاً مهذباً، الا انها اجبرت على قبوله اذ لم يكن امامها خيار آخر. ولما دخلت سمانثا المنزل القائم في شارع الغالتي كانت هذه هي الفكرة المسيطرة عليها. واسرعت ماتيلد لتحيتها بينما خلعت معطفها الواقي من المطر.. وقالت:

«خبريني، هل كانت المقابلة ناجحة؟».

تنهدت سمانثا فيما سوّت شعرها بيدها واجابت متعبة:

«اعتقد ذلك. ولكن، آه يا ماتيلدا لا استطيع ان افكر كيف ساعيش مع هذه الأسرة. وهذا كل ما في الأمر. لذلك طلبت مهلة للتفكير. ومن البديهي ان السنيورة لم تعجب بالفكرة».

اطرقت ماتيلد وقد تفهمت ما عنته الفتاة:

«طبعاً يا عزيزتي. الا انه من المحتمل ان تخيبي آمال سوفيا بعدم موافقتك الفورية لانها تعتقد انها فرصة ذهبية. فاسرة ماركازي اسرة غنية والجميع يكنون لها الاحترام والحب هنا».

واجتازت سمانثا الممر ذا الارض الحجرية نحو المطبخ حيث تقضي النسوة الثلاث معظم وقتهن. ولم يكن المنزل واسعاً، بل حوى غرفتين في

كل من طبقتيه. وخلا من دورة للمياه ومن امكانية الاختلاء والانفراد بالنفس. وتأكدت لها ضرورة عثورها على مكان خاص بها وبسرعة.

وتلقفت سمانثا فنجان القهوة الذي قدمته لها ماتيلد ممتنة. وقالت لها ماتيلد بمكر:

«اذا لم تقبلي هذه الوظيفة يا صغيرتي، فان احتمال حصولك على وظيفة اخرى سيكون اصعب».

وابتسمت سمانثا لماتيلد بحب:

«اعلم يا عزيزتي ماتيلد. وسأقبل الوظيفة طبعاً. الا اني اشعر باضطراب».

اطرقت ماتيلد، التي كانت قد سمعت قصة سمانثا بكاملها لدى رجوع الاخيرة من لندن، دون ان تعلق على تصرفاتها مؤيدة او معارضة. وسمانثا نفسها لم تكن تعرف اذا كانت على صواب ام ضلال، او اذا كانت قد تصرفت بحماقة عندما تخلت عن حياة الرفاهية لتعيش حياة الفقر.

الا انها نبذت هذه الافكار، فلا يمكنها البقاء في انكلترا والمجازفة بمقابلة باتريك ووالدتها، وزواجها المحتمل. ولم تشأ ان تعرف شيئاً آخر عنها حتى تبقى افكارها على حالها الآن.

وارتدت سمانثا معطفها بعد العشاء، وانطلقت سيراً على الاقدام. كان المساء الطف جواً بعد نهار عاصف مجنون، واستمتعت بالنسيم العليل يلفح وجهها، ولكنها تمنت لو ان رافنا مدينة ساحلية حتى تستطيع السير بجانب البحر. فهي تحب البحر. ولم تره الا قليلاً مذ غادرت بيروزيو قبل ستة أسابيع. ستة اسابيع! ما اعظم الاحداث التي قد تقع في مثل هذه المدة!

استيقظت في صباح اليوم التالي لترى الشمس مشرقة للمرة الاولى منذ رجوعها، وفتحت نافذتها لتطل منها الى الخارج وتحس بدفء الهواء. وتنهدت اذ شعرت بالارتياح، فالشمس دائماً تجعلها تشعر بالتحسن والانتعاش.

لقد ابلغت السنيورة ماركازي بانها ستزورها عند الساعة الثالثة لتعلمها بقرارها. وهكذا امكنها ان تتمتع بحريتها في هذا الصباح. وبعد ان تناولت قطعة من الخبز المدور والقهوة، ارتدت بنطالاً وسترة صوفية دافئة،

وذهبت لشراء بعض الحاجيات. واعطتها سوفيا لائحة بما تريد شراءه. ولما استمتعت سمانثا بمقارعة البائعين، احست انها بدأت تعود الى طبيعتها، وقالت في نفسها ان الزمن سيداوي كل الجراح، وعليها ان تتجاهل الفراغ المؤلم الذي تحس به في اعماقها. وحل الظهر قبل ان تعود الى شارع الفنانين. وعادت الى الشارع لتمشي الهوينى وتهزهز السلة في ذراعها. ولم تلبث ان انقبضت اساريرها، اذ لمحت سيارة من طراز كونتيننتال تقف امام منزل سوفيا الصغير وقد بدت ضخمة للغاية في الشارع الضيق.

ترى سيارة من هي؟ من المؤكد ان سوفيا وماتيلد لا تعرفان شخصاً يملك سيارة بهذا الحجم. والا، فان السيارة تخص اسرة ماركازي. وارتاحت قليلاً وان يكن ارتياحها مؤوساً منه اذا كانت تخص السنيور ماركازي. والمهم ان احداً لا يعرف انها هنا. لا باتريك، ولا بربارا ولا السيد بولام. وتابعت سيرها في الشارع حتى دخلت البيت حيث احست اعصابها مشدودة كاوتار الكمان. وارتجفت دون ان تدري السبب. وأمرت نفسها بان تهدأ وتستريح، وتكف عن هذيانها واحلامها واوهامها.

وانطلقت الى المطبخ حيث كانت سوفيا تحرك الحساء فوق الموقد. ولما دخلت سمانثا بادرتها بالابتسام، وسألتها:

«هل اشتريت كل ما تحتاجينه؟»

توقف قلب سمانثا على حين غفلة:

«اعتقد ذلك. متى يصبح الغداء جاهزاً؟»

عادت سوفيا تحرك الحساء:

«في غضون ربع ساعة»

«اين ماتيلد؟»

«انها في الغرفة الاخرى مع احد الضيوف. اذهبي وابلغيها ان الغداء اوشك ان ينضج، واسأل ضيفها اذا كان يرغب بتناول غدائه معنا».

تركت سمانثا السلة على الطاولة وانطلقت نحو الغرفة التي لا تستعمل الا في المناسبات الخاصة. وقرعت الباب قرعاً خفيفاً، ثم دخلت.

عندئذ شعرت وكان قلبها توقف عن الخفقان. رأت باتريك يقف مديراً ظهره للمدفأة الخالية وهو يبتسم ابتسامته الجذابة ويرتدي بزة كحلية ومعطفاً. وصاحت بصوت كادت تخنقه الفرحة:

«باتريك!»

فردّ بهدوئه المعتاد وكأنه من الطبيعي ان يقف هناك:

«مرحباً يا سمانثا».

ونهضت ماتيلد عن الاريكة قائلة:

«هذا... الضيف الكريم ينتظرك منذ زمن بعيد يا سمانثا. هل انت بخير يا حبيبتي؟ انك تبدين شاحبة جداً».

هزت سمانثا رأسها وتمتمت متلعثمة:

«اني... اني بخير».

ثم استجمعت افكارها المشتتة، وحاولت انتزاع الدهشة من نبرة صوتها:

«ماذا تعمل هنا يا باتريك؟ هل ارسلتك بربارا الي؟»

اجابها بحزم:

«لم يرسلني احد، بل حضرت بنفسي لاسترجعك».

تشنجت كتفا سمانثا:

«اشكرك على ما تكلفته من اجلي. لكني لا اريد ان أعود».

ورمق باتريك ماتيلد بنظرة جعلتها تحني كتفيها ثم تندفع الى الباب.

«سأتركما لوحدكما. فانا متأكدة ان لديكما الكثير لتقولاه».

وامسكت سمانثا ذراع ماتيلد اذ احست فجأة بالخوف من هذا الغريب المحدق فيها بعينين حادتين:

«لا تذهبي يا ماتيلد. فكل ما سنقوله يمكنك ان تسمعيه».

تحررت ماتيلد، واندفعت نحو الباب تغلقه وراءها بينما تقول:

«عزيزتي سمانثا. عليك مواجهة الامر بنفسك. ولا استطيع مساعدتك».

ولما ذهبت ماتيلد، اتكأت سمانثا على الباب ليسهل فرارها ان دعت الحاجة. وازدادت حيرتها اذ عجزت عن مجاراة باتريك وهو على ما فيه من اضطراب وهياج. اما هو، فخلع معطفه، ولم يكن قد تسنى له الوقت ليبدل ملابسه هنا في ايطاليا حيث الجو اكثر حرارة بكثير من انكلترا.

وحدثته سمانثا بيأس:

«لا ادري ماذا تتوقع مني أن اقول. الحقيقة اني تخليت عن انكلترا الى

الأبد. ولن اعود اليها لاني لا احب ناسها ولا اعرف فيها احداً بعد اليوم».
عقب باتريك بجفاء:
«بل تعرفين».
فتنهدت سمانثا:
«علمت انك تلقيت عرضاً بالسفر الى الولايات المتحدة لانتاج مسرحيتك الاخيرة في فيلم سينمائي».
«هذا صحيح. والمسرحية الآن بين يدي وكيل اعمالي في لندن. واذا اقتضت الضرورة حضوري، يمكنني العودة باقصى السرعة».
خفضت سمانثا رأسها:
«فهمت. اني سعيدة من اجلك. ستصبح من المشاهير بعد الآن».
فابتسم باتريك ابتسامة صغيرة:
«هل تعتقدين ان من المهم ان يصبح المرء شهيراً؟».
«لست ادري. ذلك يعتمد على شخصيتك. بربارا ستحب هذا كثيراً».
فسألها باتريك ببرودة:
«وما علاقة بربارا بالموضوع؟».
«لا اعرف ذلك. لكن من المحتمل ان ترتّبا برنامجاً معاً».
علق باتريك بحدة:
«كفّي عن التحدث بالالغاز. فانا وبربارا... كنا اصدقاء... لفترة. اما الآن، فكل ما بيننا انتهى. وبربارا تعرف ذلك. لكنها لن تقرّ به».
حينئذ ضمت سمانثا يديها الى بعضها وابتعدت عن الباب:
«اذن، فاني لا افهم سبب قدومك الى هنا».
«لماذا تظنين اني حضرت الى هنا ايتها الحمقاء الصغيرة؟».
ثم هز رأسه وقد امسك ذراعيها:
«هل تعرين ماذا فعلت بي يا سمانثا، وكنت احسب اني تخطيت العمر الذي اقع فيه في الهوى؟».
«آه، لماذا لم تخبرني يا باتريك؟».
«الحقيقة اني حاولت ان اخبرك يوم الجنازة. لكني اظن اني جعلت الامر يبدو مزعجاً على عاتقي. وربما لا زلت حتى الآن تفكرين بمقاصدي...».

واحمرت سمانثا خجلاً من افكارها. فهمس باتريك:
«ارأيت؟ ماذا تظنينني. شيطاناً مقنّعاً ام ماذا! هل تخيلت اني سأعرض عليك انشاء علاقة حب سرية؟».
فهزت سمانثا رأسها بينما اعترفت:
«لست ادري. ولكن، اخبرني بصراحة يا باتريك من فضلك».
واغمضت عينيها برهة. لا شك ان ما رأته ليس سوى حلم. وهمست بلهجة طغا عليها الشوق والتحرق:
«انت تعلم اني اوافق. ولكن، هل يمكننا؟ فانت مسافر الى الولايات المتحدة. ولا تنسى ان هناك بربارا...».
«امامنا كثير من الامور ينبغي مناقشتها. اولاً، بامكاننا اعتبار الرحلة الى اميركا بمثابة بداية لشهر العسل. فهل تروق لك الفكرة؟».
سددت سمانثا اليه نظرة اعجاب:
«اتدري يا باتريك انها فكرة رائعة؟».
«حسناً. هذا يحل ازمة شهر العسل. وبعد ذلك يمكننا ان نعود الى انكلترا حيث يمكننا ان نقيم في دافني اذا كانت هذه رغبتك...».
«اني اوافق».
فابتسم باتريك:
«عظيم. اما في ما يتعلق ببربارا، فدعينا نتجاهلها ولا نشغل نفسنا بامورها. واذا حدث ان ظهرت قصتك المنسية معها، ستكون هذه مشكلتها. ولا حاجة ان نبالغ في عدائنا لها».
فعلقت سمانثا:
«اني مسرورة بقولك هذا لاني لا اريد ان اسبّب لها المزيد من الازعاج».
«اذن، بقي علينا ان نقرّر شيئاً بخصوص كيلي. هل ترغبين بقضاء بعض ايام السنة هناك؟».
ضحكت سمانثا وقد احست بالطمأنينة للمرة الاولى منذ اسابيع:
«وهل يتسع لنا الوقت؟ آه يا باتريك الحبيب، انه حلم يتحقق».
ثم سألته:
«ولكن، كيف عثرت علي؟».
تنهد باتريك:

«زرت دافن حيث لم اجدك. والتقيت بإميلي. فاخبرتني عن شجارك مع بربارا، ولما ادركنا انك لن تقيمي في لندن، اقترحت اميلي فكرة رجوعك الى ايطاليا. فاتصلت بالمطار فور عودتي الى المدينة. وافادوني انك سافرت قبل اسبوع الى ميلانو، فحجزت مقعداً في الطائرة القادمة الى ميلانو بعد ان رتبت اموري».

ثم سألها ضاحكاً:

«هل تشعرين بالضجر؟».

ولما هزت رأسها نفياً، استطرد:

«واستأجرت سيارة اتجهت بها الى بيروزيو حيث عرف الجميع اسمك دون ان يعرفوا مكان وجودك. واخيراً التقيت شاباً يدعى بنيتو انجيلي...».

«بنيتو!».

«اجل. قال احد الشبان ان بنيتو هو الوحيد الذي يحتمل ان يعرف اين تقيمين. وقد أكّد انه التقاك قبل بضعة أيام حين اخبرته انك تقيمين مع ماتيلد وشقيقتها في رافنتا. وها انذا. فهل ما قلته يقنعك ويرضيك؟».

«تماماً. لكني ما زلت لا اصدّق ما حدث لانه رائع الى اقصى الحدود».

«ولكن، هذا ما تريدينه، اليس كذلك؟ الديك شكوك؟».

«الديك انت اي شكوك؟ باتريك، الحقيقة انه لم تكن عندي اي شكوك. وقد عرفت الواقع منذ الدقيقة الاولى في الطائرة».

«هل تعرفين اين سنذهب الآن؟».

تطلعت اليه سمانثا مرتبكة:

«كلا».

«الى فيلا عند شاطىء بحيرة كومو لمقابلة السنيورة مالوري...».

«أمي والدتك؟».

«اجل. لا بد ان تقابلك الآن، اليس كذلك؟ فانت ستصبحين كنّتها خلال اسبوع على الاكثر».

«حسناً يا حبيبي. لا يهمّني اين اذهب ما دمت معك».